المختصر
في المذاهب الفكرية المعاصرة

إعداد

د/عيسى بن عبدالله السعدي

أستاذ العقيدة بجامعة الطائف

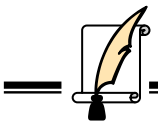

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فلا يخفى ما لدراسة المذاهب الفكريِّة المعاصرة من أهمية بالغة ؛ ولهذا رأت الكليات الشرعية أن تكون من ضمن مقرَّراتها وتخصُّصاتها ، وحين أُسند إليَّ تدريس هذه المادة المهمَّة رأيتُ أنَّ الكتاب المُقرَّر أوسع من الوقت المتاح للمادة بكثير ، فأعددتُ مُلخَّصاً لأفكاره الرئيسة ، وأضفت لذلك ما دعت الحاجة إلى إضافته أثناء العَرْض أو النقد ، وقد حرصتُ على تركيز الأفكار ، وترتيبها ، وعرضها بأسلوبٍ مُيسَّرٍ ليعُمَّ نفعه بإذن الله تعالى . والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل ..

كتبـــــــه

د / عيسى بن عبد الله السعدي

أستاذ العقيدة بجامعة الطائف

الـــدِّين والكنيـسة

س/ ما علاقة المذاهب الفكريِّة بالأديان ؟

جـــ/ المذاهب الفكريِّة قد تكون موجَّهةً لمحو الدِّين ؛ كالشيوعيِّة ، أو لتقليل دوره في الحياة ؛ كالعلمانيِّة .

س/ هل نجحت المذاهب الفكريِّة المعاصرة في اكتساح الأديان ؟

جـــ/ في أوربا نجحت إلى أقصى غاية ؛ ولهذا نَحَّت أوربا الدِّين وأحلَّت محلَّه المذاهب المعاصرة ، ولو نَظَرْتَ إلى أوربا وروسيا لوجدتَّ أنها إمَّا مجتمعاتٍ علمانية ، أو اشتراكية وشيوعيِّة.

وقد تراجع بسبب هذه المذاهب دور الدِّين إلى حدٍّ كبير ، إلاَّ أنَّه بدأ يعود للتأثير من جديد منذ أكثر من عشرين عاماً ، وظهرت هناك اتِّجاهات تسمَّى بالاتجاهات الأُصوليِّة ؛ وهي التي تدعو إلى العودة إلى الدِّين والتزام تعاليمه ، وقد نجح بعضها في الوصول إلى الحُكْم ، وظهر في كثير من أنحاء العالم عودة إلى الدِّين وبدأ يتراجع دور المذاهب ، حتى إنَّ بعض الكتَّاب تنبَّأ بأن يكون هناك صدام بين الحضارات ، ولهذا ظهرت دعوات لحوار الحضارات ثم تحالف الحضارات .

والذي يبدو الآن في الأُفق أنَّ المذاهب تتراجع وتتآكل حتى في مهْدِها ، وبدأ العالم يعود من جديد إلى الأديان ، ومع ذلك ما زالت المذاهب مسيطرة على مُعظم العالَم.

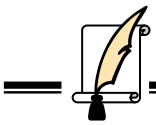

س/ ما الهدف من هذا الباب الذي عقده المؤلِّف في أوَّل الكتاب وهو (الدِّين والكنيسة) ؟

جـــ/الهدف هو بيان الأسباب التي نفَّرت أوربا من الدِّين النصراني وجعلتهم يُقبلون على المذاهب المعاصرة .

س/ ما الأسباب التي نفَّرت أوربا من الدِّين النصراني ؟ اذكرها باختصار ..

جـــ/ هذه الأسباب كالتالي :

١- تحريف الدِّين النصراني .

٢- طغيان الكنيسة ورجال الدِّين .

٣- فساد رجال الدِّين .

٤- نظام الرَّهبنة وفضائح الأديرة .

٥- صكوك الغفران .

٦- محاكم التفتيش .

٧- مساندة الكنيسة لنظام الإقطاع .

(شرح وتفصيل لهذه الأسباب)

تحريف الدِّين النصراني

- هل عرفت أوربا الدِّين النصراني الصحيح أم لا ؟

-كيف كانت صورة الدِّين في أوربا حين دخلها ؟

لم يدخل الدِّين النصراني إلى أوربا إلاَّ في القرن الرابع الميلادي ؛ فقد كان أباطرة الرومان يضطهدون المسيحيين في القرون الثلاثة الميلادية الأولى ، حتى دان قُسطنطين في القرن الرابع الميلادي بالمسيحية فدانت به أوربا كلها .

س/ هل دخول قُسطنطين في النصرانية كان لوجه الله ، أم لهدفٍ سياسي ؟

جـــ/ لم يكن دخول قُسطنطين في النصرانية لوجه الله ، وإنما كان لتوحيد الحزبيْن المتنافِسيْن : النصراني والوثني أمام أعدائهم الفُرْس . فالهدف كان سياسياً و لم يكن هدفاً دينياً ..

والدِّين الذي فرضه قُسطنطين على أوربا ليس هو الدِين المُنزَّل من عند الله الذي جاء به المسيح ؛ وإنما هو الدِّين الذي حرَّفه بولس والمجامع الكنسية من بعده ، وقد نال التحريف العقيدة والشريعة :

أ- ففي العقيدة : نال التَّحريف جوهر التوحيد ؛ ففُرِض التثليث والإيمان بالصَّلب ، وغير ذلك من التحريفات .

ب- وفي الشريعة : اختار النصرانية القائمة على مبدأ فصْل الدِّين عن السياسة بمقتضى العبارة المشهورة (أعْطِ ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر) .

وهكذا نرى أنَّ الدِّين الذي دانت به أوروبا منذ البداية لم يكن صالحاً للحياة ،

وكان هذا من أكبر عوامل هجرانهم له فيما بعد .

طُغيان الكنيسة ورجال الدِّين

حصرت الكنيسة الدِّين في العقيدة والشعائر الربانيِّة ، ومع ذلك أعطت رجال الدِّين سُلطاناً ونفوذاً هائلاً ، واستندت في ذلك لنصوص نسبتها للمسيح ؛ منها قول المسيح عليه السلام لبطرس كبير الحواريين : (إنِّي أهبُ سلطاني لكنيستي) وقوله أيضـــــــاً : (على هذه الصخرة ابْنِ كنيستي ، وكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات ، وكل ما تُحِلُّه في الأرض يكن محلولاً في السماوات) .. وبناءً على ذلك أصبحت آراء رجال الدِّين تشريعاتٍ واجبة الطاعة .

وكان من آثار ذلك طغيان رجال الدِّين في جميع جوانب الحياة ؛ ومن ذلك :

أ- الطُّغْيان الرُّوحي : مارست الكنيسة مظاهر من الطغيان الروحي ؛ كربط المسيحي بالكاهن منذ أن يُعمَّد بعد ولادته إلى أن يُدفن .

ومن ذلك أيضاً ؛ احتفاظ الكنيسة بحق فَهْم الأسرار المُقدَّسة .

ومن ذلك أيضاً ؛ إحاطة رجال الدِّين أنفسهم بهالة من القداسة لدرجة أن المسيحي ربما سجد له إذا رآه !!

ب- الطُّغْيان العقلي والفكري : فلقد مارست الكنيسة على عقول الناس لوناً من ألوان الطُّغْيان العقلي يتمثَّل في فرض أساطير الكنيسة على عقول أتباعها فرْضاً لا يقبل المناقشة ، بل إنها اعتبرت المناقشة فيه من الهرطقة ؛ كأسطورة التثليث ، والعشاء الرباني ، وصلب الابن المُخلِّص .

ج- الطُّغْيان المالي : ابتدع النصارى الرهبانية في دينهم ، وكان من المتوقَّع أن يُقبلوا

على الآخرة ويتقلَّلوا من الدنيا إلى أقصى حدٍّ ممكن ، ولكن حدث العكس تماماً ؛ فتوسَّعت الكنيسة في جمْع الأموال حتى أصبحت من أكبر إقطاعيِّ أوربا ، وكانت مصادر تلك الأموال متعدِّدة ؛ منها :

– الأوقاف : فكانت تستولي على أراضٍ زراعية وتوقفها على نفسها .

– العشور : فكان كل نصراني عليه أن يدفع عُشْر ماله للكنيسة .

– ضريبة السنة الأولى : فدخْل السنة الأولى لأي وظيفة يُدفع للكنيسة .

– الهبات : منها ما يكون اختياراً ، ومنها ما يكون توريطاً ، ومنها ما يُفرض عند كتابة الوصيِّة .

–السُّخْرة : فكانت الكنيسة تفرض على كل واحد أن يُخصِّص يوماً في الأسبوع للعمل في أملاك الكنيسة .

وبهذه الطُّرق استطاعت الكنيسة أن تجمع أموالاً طائلة استخدمت أكثرها في هواها الشخصي لا في خدمة الدِّين .

د– الطُّغْيان السياسي : من مبادئ الكنيسة الفصل بين الدِّين والسياسة بمقتضى العبارة المشهورة : (أعْطِ ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر) . وكان من المتوقَّع أن تعتزل الكنيسة شؤون الحياة ، ولكن حدث العكس تماماً ؛ فطالبت بإخضاع السلطة الزمنية ؛ أي سلطة الملوك والأمراء للسلطة الدينية ؛ وهي سلطة رجال الدِّين باعتبارهم يُمثِّلون الله في الأرض ، وتمكَّنت من ذلك بالفعل ، وكان ذلك في القرون الوسطى تقريباً ، لدرجة أنها كانت تُعيِّن الأباطرة وتُقيلهم ، وقد ذكر المؤلِّف شواهد على ذلك ؛ كقصَّة هنري الثاني مع رئيس أسقفة كانتربرى ، وللأسف استخدم رجال الدِّين هذا السلطان لهواهم الشخصي لا لتطبيق حكم الله .

هـــ- الطُّغْيان العلمي : هذا الطُّغْيان يختلف عن الطُّغْيان الفكْري ؛ فقد حَجَرَ رجال الدِّين على العلماء التفكير بما تقتضيه المشاهدات العلميِّة إذا خالف التفسيرات الكنسية لِما جاء من إشاراتٍ علميِّة في الكتاب المقدَّس عن شكْل الأرض ، وغير ذلك من الحقائق العلميِّة .

وقد بدا هذا الصِّراع حين قال العلماء إنَّ الأرض كرويِّة ، فهاجمت الكنيسة هذه الدعوى بحجَّة أنها تخالف التفسير الديني للنص المقدَّس ، ووصل الحال إلى درجة حرْق بعض العلماء حيَّاً ، وكان من الأسماء التي برزت في فترة الصراع بين العلم والكنيسة (كوبرنيق) و (جُردانوا) و (جاليلو) ، وقد ترتَّب على هذا الصراع فصاماً نكِداً بين الدِّين والعلم ؛ فخيَّرت الكنيسة أتباعها بين التديُّن والتعلُّم . ومع الزمن تحوَّل هذا الفِصام إلى بُغْضٍ للدِّين ؛ لدرجة أنهم اعتبروا مُجرَّد ذِكْر الله يُفسد البحث العلمي . ومع الزَّمن – أيضاً – تحوَّل العِلْم إلى أداةٍ للقضاء على الدِّين ، وأبرز مثال على ذلك نظرية (دارون) في النشوء والارتقاء ؛ فقد كانت بوَّابة الإلحاد التي دخل منها ماركس وإنجلز وغيرهم من الملاحدة .

ويلفِتُ المؤلِّف النظر إلى أنَّ أساس هذا الصراع كان بسبب أنَّ العلم الحديث آنذاك قادمٌ من بلاد الإسلام ، فرأت الكنيسة مع انتشاره انتشاراً لقِيَم الإسلام ؛ ولهذا حاربته بهذه الضراوة .

فساد رجال الدِّين

المفروض في علماء الدِّين بَلْه رجال الدِّين أن يكون عملهم وتصرُّفهم يُطابق ما عندهم من العلم ، وإلاَّ كانوا أكبر عاملٍ لصدِّ الناس عن دين الله ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ – ٣] . وللأسف فقد كان رجال الدِّين في أوربا على خلاف هذا المبدأ بشهادة

الأوربيين أنفسهم ؛ فقد بلغ فساد رجال الدِّين إلى درجةٍ ضجَّ بها المجتمع الأوروبي والعالَم ، وسنذكر لذلك أمثلة :

أ- كرسي البابوية : فقد كان يُنال بالرَّشاوى ، وأحياناً برغبات النساء المنحرفات .

ب- الوظائف الدينية : فقد كانت كثيراً ما تُنال بالرَّشاوى .

ج- الفساد الخُلُقي : الذي وصل إلى درجة الشذوذ أحياناً .

د- نظام التَّحِلَّة : وقد كان البابا بمقتضاه يُعفي نفسه من الالتزام بأوامر الكنيسة ونواهيها .

هذا الفساد أدَّى إلى نفور الناس من الدِّين وأهله ، وعزْل الدِّين بعيداً عن المجتمع ، وعلى الرَّغم من كل ما حصل فلا زال الفساد سارياً في رجال الدِّين ؛ حتى إنه في عام ١٤١٨هـ أُعلِن في الأنباء العالمية عن إدانة عددٍ من القُسس بزراعة الحشيش في الصوامع .

نظام الرَّهبنة وفضائح الأديرة

كان عيسى عليه الصلاة والسلام يُركِّز على الجانب الروحي وعلى الزُّهد ؛ لأنه بُعِث لليهود الذين غلب عليهم جانب المادة والقسوة ، ولكنه لم يأمر بالرَّهبنة ، وإنما ابتدعها اتباعه تأثُّراً بتعاليمه ، أو تأويلاً لها ، وكان هدفهم ابتغاء رضوان الله ؛ فقبلها الله منهم ، ولكنَّهم لم يَرْعَوْها حقَّ رعايتها : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[الحديد: ٢٧] ، بل تحوَّلت إلى شعار خادع تُمارَس تحته أنواع الفسوق ، وشاع بين الرُّهبان والرَّاهبات الاتصال المُحرَّم ، وكانوا يسمُّونه المساكنة الروحية ، بل تعدَّى الحال ببعضهم إلى درجة الشذوذ (أو المثليِّة بالتعبير المعاصر في أوربا) ، وكان هذا من الأسباب التي نفَّرت الناس عن الدِّين النصراني

وجعلتهم يتقبَّلون المذاهب المعاصرة.

وهذا يدلُّنا على حكمة الإسلام حين حرَّم الرَّهبانية ؛ لأنَّ الدوافع الفطريِّة لا يجوز كبتها كما لا يجوز إطلاقها ، وإنما يجب تهذيبها وضبطها .

صكوك الغفران

بدأت هذه المهزلة في الحروب الصليبية لتشجيع الجنود على قتال المسلمين ؛ فكانت تمنح صكَّ الغفران لمن ينخرط في الجيش لقتال المسلمين .

ثم بعد ذلك استُعمِلت هذه الصكوك لابتزاز الأموال ؛ فظهرت طبقةً من الناس عاثت في الأرض فساداً ؛ لأنها ضمنت غفران ذنوبها ، ثم تكشَّفت المهزلة للناس ، وكان لذلك ردَّة فعل عنيفة ضدَّ الدِّين ورجاله ، وهذا يدلُّنا على عظمة الإسلام الذي جعل المغفرة حقَّاً لله وحده ، حتى إنَّ أشرف الخلْق عليه الصَّلاة والسَّلام لا يملك منها شيئاً ؛ قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، وأما الذي يملكه الخلْق ؛ فهو الدعاء بالمغفرة .

محاكم التفتيش

حين بدأت تهتزُّ صورة الكنيسة في الأذهان لما سبق ذِكْره ؛ نظَّمت الكنيسة محاكم التفتيش كأداةِ تحقيقٍ مستديمةٍ للمحافظة على سلطان الكنيسة وتصيُّد الهراطقة ، وكانت تأخذ الناس بالظِّنَّة ، ولا تترك لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم ، وتُنزل بهم من العقاب ما لا يخطر لهم على بال ، حتى إنها أحرقت بعض الناس أحياءً ، وقتلت الكثير بالمِقْصَلَة ، وقد ذكر المؤلِّف أنَّ ما فعلته محاكم التفتيش بالأوربيين يُعتبر رحمةً إذا قيس بما عملته بالمسلمين في الأندلس .

مساندة الكنيسة لنظام الإقطاع

كانت أوربا في عصر الإقطاع تعيش حياةً عجيبة ؛ فكان أمير الإقطاع هو كل شيء في حياتهم ، وهو السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وكان كل شيء في حياتهم مرتبطٌ به حتى دقائق الأمور ، فالحَبُّ – مثلاً – لا يُطحن إلاَّ في طاحونه ، وكان يَفْرِض عليهم من الضرائب ما شاء ، ويُمارس ضدَّهم المظالم حتى في حياتهم الخاصة ، لدرجة أنَّه كان له حقُّ الليلة الأولى .

وقد وقفت الكنيسة مع أمراء الإقطاع ، وهدَّدت الفلاَّحين باللَّعن والطرد من رحمة الله إن هم خرجوا عن طاعة أسيادهم ، وقالت للفلاحين : (من خدم سيِّدين – يعني : الله والإقطاعي – في الدنيا خيرٌ ممن خدم سيِّداً واحداً) ، وَدَعَتِ المظلومين إلى الصبر واحتمال ظلم الإقطاعي ليعوِّضهم الله بالجنة ، ومن هنا قال ماركس (الدِّين أفيون الشعوب) .

نتيجةً لما سبق :

نتيجة العوامل السابقة التي فصَّلناها ؛ كان هناك ردَّة فعل ضدَّ ظلم رجال الدِّين ورجال الإقطاع ، وبدأ النقد لهم رويْداً رويْداً ، وأخذ يتنامى مع الزمن حتى أصبح تياراً عاماً وشعوراً لمعظم الناس ؛ فكانت الثورة الفرنسية الكبرى ضد هذا الظلم الثنائي ، واستطاع اليهود بما لهم من إمكانات أن يُحوِّلوا مسار الثورة من ثورةٍ ضد رجال الدِّين والإقطاع إلى ثورة ضد الدِّين نفسه ، وكان شعار الثورة : (اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسِّيس) ، وتمكَّنت الثورة من النجاح ، وكان من أكبر نتائجها سيادة المذاهب الفكرية على أوربا بدلاً من الدِّين ، وقد سرى ذلك لكثير من دول العالَم !!

س/ ما هي المعالم العامة للمذاهب المعاصرة التي سادت أوربا بعد الثورة الفرنسية الكبرى إلى اليوم ؟

جـــ/ هناك اتِّجاهان رئيسان للمذاهب المعاصرة :

١- اتِّجاهٌ علماني : وهو الذي يعْزِل الدِّين عن الحياة دون أن يكون هدفه محو الدِّين من الوجود ؛ ولهذا تجد في العلمانية اتِّجاهٌ ديني واتِّجاهٌ إلحادي واتِّجاهٌ محايد ، وللفرد حقُّ الاختيار لما يشاء من هذه التيارات والاتِّجاهات ، ولهذه الحريِّة أو الليبرالية قدسية كبيرة في العلمانية ، وهذا الاتجاه العلمـــاني هو الذي ساد أوربا الغربية وأمريكا الشمالية .

٢- اتِّجاهٌ إلحادي : وهو الذي يسعى لمحو الدِّين من الوجود ، ويرى أنه من صُنْع الإنسان ، وأنه قد وُجِد لظروفٍ تغيَّرت وتبدَّلت ، وأبرز من يُمثِّل هذا الاتجـــاه : (الشيوعية العالمية) ؛ وهي التي سادت في الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوربا ، وحاربت الدِّين بضراوة ، وهجَّرت الملايين من المتديِّنين ، وقتلت الكثير ، وكانت كارثةً بكل ما تعنيه الكلمة ، حتى انكسرت حِدَّة هذا التيار بعد سقوط الاتحاد السوفيتي قبل أكثر من عشرين عاماً .

دور اليهود في إفساد أوربا

رأينا أن النصارى مروا بظروف نفَّرتهم من رجال الدِّين حتى كان الانفجار في الثورة الفرنسية الكبرى في القرن الثامن عشر الميلادي ، والتي كانت نقطة التحوُّل الأوربي من الدِّين الى المذاهب المعاصرة – وقد درسنا تلك الظروف والأسباب – ولكنَّ الأوربيين لم يُتركوا لتلك الظروف ، بل جاء من استغلَّها وغذَّى نفورهم من رجال الدِّين حتى تمكَّن من تحويل الثورة إلى ثورةٍ ضدَّ الدِّين نفسه لا ثورة ضد طغيان رجاله ، وهؤلاء هم اليهود ، وقد ذكر المؤلِّف أنهم ساروا لتحقيق هذا الهدف في طريقين :

١– طريق عملي : وهو إنشاء دين بلا أخلاق ولا تقاليد ، وقد تمكَّن اليهود من ذلك لأن الثورة الفرنسية اسقطت رجال الإقطاع ، ولأنهم موَّلوا الثورة الصناعية ؛ فأصبحت معظم مؤسسات المجتمع الأوربي في أيديهم ؛ كالمصانع ، والجامعات ، ودور النشر ، ووسائل الإعلام ، فتمكَّنوا من تعزيز الاتجاهات التي تُحارب الدِّين حتى وصلوا بالمجتمع الأوربي – على المدى الطويل – إلى ما نراه اليوم من بُعْدٍ عن الدِّين والأخلاق والقيم .

وقد يستغرب المرء كيف يدعم اليهود الفساد ويحاربون الدِّين وهم أصحاب ديانة سماوية ؟ ولكن إذا عرفنا نظرتهم لمن سواهم زال الاستغراب ؛ فهم يقسمون الناس إلى يهود وجوييم أو أمِّيين ، ويرون أن الأُمِّيين ما هم إلاَّ حميرٌ لليهود كما جاء في التلمود (الجوييم هم الحمير الذين خلقهم الله لنركبهم) ، ولا يتم استحمار الأمِّيين إلاَّ بنزْع الدِّين والأخلاق !! وقد نبَّهَنا الله إلى ذلك بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥] ، وقوله : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ [المائدة: ٣٣] ، وهذه الحقيقة يعرفها حتى الأوربيين ، ولهذا تجد لهم من المؤلَّفات ما يكشف هذا الجانب من خزي اليهود مثل : اليهود وراء كل جريمة ، أحجار على رقعة الشطرنج.

وقد نبَّه المؤلِّف إلى أنَّ اليهود لا يُنشؤن الأحداث ، ولكنَّهم يُحسِنون استغلال الفُرص ، وقد استغلوا نفور الأوربيين من رجال الدِّين ، فحوَّلوه إلى نفور من الدِّين نفسه ، حتى بلغ بهم الحال إلى نفورٍ من الدِّين غير مسبوق في التاريخ ، وبخاصَّةٍ في المجتمعات التي سارت في الخط الشيوعي أو الاشتراكي .

٢- طريق نظري : فلم يكتف اليهود بالجانب السابق ، بل ساروا مع ذلك في طريق نظري لا يَقِلُّ خطورةً عن الطريق السابق ؛ بطَرْح نظريَّاتٍ علميِّةٍ في الظاهر وهي في الحقيقة لهدم الدِّين والقيم ، وأبرز هذه النظريات نظرية دارون ، ماركس ، فرويد ، ودور كايم .

أ- نظرية دارون :

دارون ليس يهودياً ولكنَّ اليهود استغلَّوا نظريته ونشروها حتى أصبحت هي الحقيقة العلمية التي تُدرس في معظم جامعات أوربا .

وخلاصة نظرية دارون أنَّ في الطبيعة انتخاب طبيعي ، وهو الذي يتمُّ عن طريقة التغيُّر الناشئ في الكون ويمكن أن يصل إلى حدِّ استحداث صفات جديدة لم تكن في الأبوين مما أدَّى على المدى إلى ظهور أنواع وأجناس جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، وقد زعم أنَّه من خلال عملية التطوُّر هذه سارت الحياة في سلسلة طويلة من الرُّقي التدريجي ؛ فبدأت بالكائن وحيد الخلية ، ثم الفطريات المتعددة الخلايا ، ثم النبات ، ثم النبات الذي يشبه الحيوان ، وهكذا حتى وصلت إلى الثدييات العليا ، ثم القردة العليا ، ثم الحلقة المفقودة ، ثم الانسان .

وبناء على هذه النظرية زعم دارون أنَّ خلق الانسان تدرُّج طبيعي ؛ أي أنه لا وجود للخالق ، وأنَّ الانسان من إبداع الطبيعة ، وقد كانت هذه النظرية هي الأساس العلمي للإلحاد الذي شاع في العصر الحديث بشكل غير مسبوق في التاريخ .

ب- نظرية ماركس :

هو يهودي ألماني عاش في القرن التاسع عشر الميلادي ، وهو أبو الشيوعية الحديثة وصاحب المقولة المشهورة (الدين أفيون الشعوب) ، وقد أخذ ماركس جوهر نظرية دارون وأنشأ على أساسها نظرية اقتصادية وتفسيراً للحياة البشرية على النسق التالي:

أ- أنَّ الأحوال المادية والاقتصادية هي العنصر الرئيس المسيطر على حياة الإنسان وأفكاره ومشاعره .

ب- بمقتضى هذا التصوُّر قسَّم التاريخ إلى خمس مراحل :

١- الشيوعية الأولى : وجوهرها عدم وجود ملكية فردية لأي شيء حتى النساء ، ولهذا كانت الحياة في هذه المرحلة ملائكية بزعمه !!

٢- مرحلة الرِّق : انتقل الناس إلى هذا الطور عن طريق اكتشاف الزراعة ، فاسترقَّت القبائل القوية القبائل الضعيفة لتعمل في الحقول .

٣- عصر الإقطاع : وقد انتقلت البشرية إليه بسبب اكتشاف المحراث الذي بواسطته يستطيع الإنسان زراعة مساحاتٍ أكبر .

٤- عصر الرأسمالية : وكانت بسبب اكتشاف الآلة ، وبواسطتها تحوَّل المجتمع الزراعي إلى مجتمع صناعي ، وقد كَثُرَ كلامه عن هذه المرحلة باعتبارها المرحلة التي عاشها ويدعو إلى الانتقال عنها .

٥- الشيوعية الثانية : وهي تتكون نتيجة الصراع بين أصحاب رؤوس الأموال وبين طبقة البروليتاريا (العمال) .

وقد زعم ماركس أنَّ لكل مرحلة من تلك المراحل أخلاقها وعقائدها وتقاليدها ،

وتُعتبر في حينها علامات صحيِّة ، وفيما بعد ذلك علاماتٍ رجعيِّة ، وزعم أنَّ هذه القيم تتغيَّر تغيُّراً حتمياً كلما تغيَّر الوضع الاقتصادي ؛ فمثلاً : في عصر الإقطاع ظهر التديُّن ؛ لأنَّ الفلاَّح كان لا يستطيع السيطرة على البذرة ، فتخيَّل قوَّةً غيبيِّة يتوجَّه إليها لتحفظ له زرعه وثمره ، وظهرت الأُسرة والعفَّة ؛ لأنَّ الرجل كان هو المُتكسِّب ، فكان يفرض على المرأة أن تكون له وحده .

وفي العصر الصناعي تقِلُّ الحاجة إلى التديُّن ؛ لأنَّ العامل يُسيطر على معظم وسائل الانتاج فلا يحتاج إلى قوَّةٍ غيبيِّة تحفظ له محصوله .

أما في المجتمع الشيوعي فتختفي هذه الأمور تماماً ، فتُلغى الملكية الفردية ، ويُلغى الدِّين إلغاءً كاملاً ؛ لأنَّ دوره قد انتهى ، وتزول الملكية الفردية تماماً التي كانت سبب الصراع ، ويعود الناس إلى المجتمع الملائكي الأول ، وهي مرحلة الشيوعية .

س/ لماذا اقتصر المؤلِّف على ماركس دون غيره من الملاحدة ؟

ج/ لأنَّ ماركس أكثرهم تأثيراً ، وهو الذي قامت الشيوعية الحديثة على نظريَّته ، ولأنَّ المؤلِّف – أيضاً – يعرض دور اليهود في إفساد أوروبا ؛ فاقتصر على ماركس باعتباره يهودياً .

س/ ما أبرز المدارس الإلحادية التي أسهمت في نشر الإلحاد في عصر ماركس أو قبله بقليل ؟

ج/ هناك مدرستان ومذهبان مشهوران :-

أولاً : المذهب الحسي ، ومن أبرز من يُمثِّله (ديفد هيوم) و (وشوبنهاور) و (نيتشه) .

ثانياً : المذهب الوضعي " المدرسة الواقعية " ، ومن أبرز من يُمثِّلها (أوجست كونت) .

١- أما (ديفد هيوم) : فهو فيلسوف بريطاني ، كان لا يؤمن بما وراء الحس ، ولهذا أنكر عالم الغيب كله بما في ذلك الله والدار الآخرة ، واعتبر العقائد الإيمانية كلها من أوهام الإنسان وخياله . وقد بلغ به الشطط إلى إنكار قانون السببية ، وأرجع هذه العلاقة إلى مجرَّد الاقتران العادي ، وهو ما سمَّاه (قانون التشابه والاقتران) أو (تداعي المعاني) ، وهدفه من إبطال قانون السببية الوصول إلى إبطال الدليل الأكبر على وجود الله تعالى ؛ وهو الاستدلال بالمخلوق على الخالق .

٢- وأمَّا (شوبنهاور) : ففيلسوف ألماني لا يؤمن بما وراء المادة من الغيبيات ، ويرى أنَّ العالَم المادي أو الحس كافٍ لتفسير كل ما يجري فيه ، وليس بحاجة إلى قوة خارجية تؤثر فيه . وقد غلب على فلسفته التشاؤم ، وكان يُرغِّب في الانتحار ، واخترع ما سمَّاه (الإرادة الكلية) ، وزعم أنَّ الكون كله يخضع لها وهي التي تُحافظ على بقائه ، كما زعم أنَّ وسيلة الإرادة الكلية في الإبقاء على النوع الإنساني هي العقل والجنس ؛ فالعقل يُقنع الإنسان بقبول الحياة على ما فيها من ألمٍ عن طريق اختراع أشياء تقنعه بالحياة ؛ كوجود إلهٍ أو بعْثٍ أو جنة أو نار ، والجنس يقوم على إغراء الذَّكر بالأنثى والعكس ، وقد أعلى من شأن الغريزة الجنسية واعتبرها أساس السلوك الإنساني .

٣- وأمَّا (نيتشه) : ففيلسوف ألماني أيضا ، كان لا يؤمن بما وراء الحس ، ويعتبر الدِّين أكبر خرافة توارثتها الإنسانية ، وكان يُمجِّد القوة ويدعو إلى القضاء على ما يعارضها ؛ كالحب والعطف والرحمة ، وقد ركَّز نيتشه في فلسفته على خلْق الإنسان الأعلى (السوبرمان) عن طريق الصراع بين الأغنياء والضعفاء والتطوُّر الذاتي ؛ فذهب إلى أنَّ الكائنات بدأت من الخليَّة الواحدة ثم تطوَّرت حتى وصلت للإنسان ، ولكنَّ

الإنسان وقف في مسيرة الارتقاء بسبب أوهامه عن الدِّين والأخلاق والتقاليد والإبقاء على الضعفاء ، وعلى الإنسان أن يبدأ مسيرة التطوُّر عن طريق القضاء على الدِّين والقيم وإحياء الصراع بين الأقوياء والضعفاء دون رحمة ، لنصل في النهاية إلى الإنسان (السوبرمان) ، ولهذا عُرِفت فلسفة (نيتشه) بفلسفة العنف .

٤- (أوجست كونت) : وهو فيلسوف فرنسي ، وهو مؤسس المذهب الوضعي أو الفلسفة الوضعية (الواقعية) ، وكان يرى أنَّ الفكر الإنساني لا يُدرك إلاَّ الظواهر المحسوسة في العالَم وما بينهما من علاقاتٍ محسوسة ، أما العلل التي وراء هذه الظواهر فهي أوهام لا صِلة لها بالواقع ، ولهذا أهمل عالَم الغيب كله .

وقد زعم (كونت) أنَّ التقدُّم الإنساني مرَّ بثلاث مراحل : المرحلة اللاَّهوتية ، ثم الميتافيزيقية ، وأخيراً الحالة الوضعية ، وفي هذه المرحلة يقتصر العقل على اكتشاف قوانين الظواهر الطبيعية ولا يبحث عن العلل المُطلقة ، ولما كانت الظواهر الطبيعية مختلفة كان من المستحيل ردُّ القوانين إلى قانون واحد ، وبناءً على ذلك لا يمكن أن تنتهي المرحلة الوضعية أو الواقعية إلى وحدة مُطلقة ؛ كـ (الله) في الحالة اللاَّهوتية ، و (الطبيعية) في الحالة الميتافيزيقية ، وقُصارى ما يُمكن أن نبلغه هو (وحدة المنهج العلمي) .

وهكذا نرى أنَّ هذه الفلسفة أهملت الدِّين والغيب ، وطبَّقت المنهج العلمي التجريبي حتى في العلوم النظرية ، ونذكر هنا أنَّ زعمه بأنَّ المرحلة اللاَّهوتية بدأت بالتعدُّد وانتهت بالتوحيد مخالف للشرائع السماوية التي أطبقت على أنَّ الأصل في البشرية التوحيد لا الشرك ؛ قال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٣] ؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما : (كان بين آدم ونوحٍ عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق

فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين مُبشِّرين ومُنذرين) .

ويدلُّ لصحة كلامه قراءة ابن مسعود وأُبي بن كعب رضي الله عنهما : (كان الناس أُمة واحدةً فاختلفوا) ؛ ولهذا قال ابن كثير رحمه الله : (هذا القول عن ابن عباس أصح سندًا ومعنى ؛ لأنَّ الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام ، حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض) أ – هـ من تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٠

ج/ نظرية فرويد :

هو يهودي نمساوي ، عاش في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، كان يعمل طبيبًا ثم تخصَّص في معالجة الأمراض العصبية والنفسية ، وأنشأ عيادة خاصة لعلاج مرضاه ودراسة أحوالهم عن كثب ، ثم استنبط من دراسته تطوراً خاصاً للنفس البشرية وتفسيراً لطاقاتها المختلفة ، وأرجعها كلها إلى الطاقة الجنسية ؛ فالطاقة الجنسية هي المحرِّك للطاقة الانسانية ، وهي الأساس لنشوء الدِّين والقيم ؛ ففي فجر التاريخ – بزعمه – وقعت حادثة كانت الأساس لنشوء الدِّين ؛ ذلك أنَّ الأولاد شعروا بالرَّغبة الجنسية تجاه أُمِّهم فوجدوا أباهم حائلاً بينهم وبين الاستيلاء على الأم فقتلوه ، ثم أحسُّوا بالندم على قتل أبيهم فقدَّسوا ذكراه ؛ فنشأت أوَّل عبادة عرفتها البشرية ، وهي عبادة الأب ، ثم إنَّ الأولاد وجدوا أنهم سيتقاتلون للاستيلاء على الأم وسيقتل بعضهم بعضاً فاتَّفقوا على أنَّ لا يقربها أحد منهم ؛ فنشأ أول تحريم في العلاقات الجنسية ؛ وهو تحريم الأم . وقد استدلَّ لصحة هذه القصة بقول دارون : (في عالم البقر تتجه الثيران الشابة إلى الأم لمواقعتها ، فتدور بينهم معركة رهيبة يفوز فيها أقوى الثيران بالأم ويندحر الباقون) !!! ؛ وهكذا بكل بساطة يستدل بما في عالَم البقر على ما في عالَم البشر ، ويزعم أنَّ أصل الدِّين هو الشعور بالندم الذي استولى على الأبناء لما قتلوا أباهم ، ثم تطوَّر إلى عبادة الطوطم ، ثم تطوَّر إلى عبادة القُوى الخفيَّة .

ويمضي هذا الضال في التأكيد على أنَّ الطاقة الجنسية هي الطاقة العظمى في الكائن البشري والمسيطرة على جميع طاقته ؛ فيزعم أنَّ الدِّين والقيم نشأت من عقدة أوديب عند الابن وعقدة إلكترا عند البنت ، فالصبي بزعمه يُولد بطاقة جنسية وينمو ويحس تجاه أُمِّه بشهوة جنسية ولكنه يجد أباه حائلاً بينه وبين الاستيلاء عليها ، فيكره أباه الذي يحبه في ذات الوقت ، ويتصارع الحُبُّ والكره تجاه الأب ، فيكبت الكره في اللاَّشعور ويَظهر الحُبَّ على السطح ، ويأخذ بالتعويض عن عجزه في الاستيلاء على الأم ، فيروح ينهى نفسه ويأمرها ، فينشأ الضمير والقيم من هذه العقدة التي سماها عقدة أوديب ، ويقابلها عقدة إلكترا عند الفتاة وهي التي تنشأ عن كبت البنت لشهوتها الجنسية تجاه أبيها .

وقد سطَّر معظم آرائه في أشهر كتبه مثل الطواطم والمحرَّمات والذات والذات السفلى وتفسير الأحلام ، وهكذا نرى أنَّ فرويد ردَّ الدِّين إلى الطاقة الجنسية واعتبر الأخلاق والقيم كوابت تمنع الشباب من الحياة الطبيعية ، وقد زعم أنَّ الازدواج العاطفي وهو الشعور بالحب والكره معاً تجاه الشخص الواحد هو الطابع العام للعواطف البشرية ، فنظرية فرويد إذن موجَّهةٌ ضدَّ الدِّين والقيم ، ولهذا قال (يونج) تلميذ فرويد في كتابه ذكرياتي عن فرويد : (لقد قال فرويد إنه ينبغي أن نحطِّم كل العقائد الدينية) !!

ولا تحسب أنَّ آراء فرويد كانت سهلة ، فقد أثَّرت في كثير من أنحاء العالَم وانطلق كثير من الشباب وراء الشهوات واعتبروا الدِّين كبتاً للحرية الشخصية ، وقد بدأ المجتمع الغربي نفسه يُنادي بضرورة ضبط الطاقة الجنسية ، وخاصة بعد ظهور الأمراض الجنسية المستعصية على العلاج كنقص المناعة المكتسب (الإيدز) .

د- نظرية دور كايم :

هو يهودي فرنسي عاش في القرن (١٩) م وأوائل القرن (٢٠) م ، وهو عالم له شهرته بين علماء الاجتماع ، وأله كتب أشهرها مقدمة في علم الاجتماع ، وخلاصة آرائه تتمثَّل فيما يلي :

أ- أنَّ تصرُّفات الكائن البشري من إيحاء العقل الجمعي ، والفرد يتقبَّل ما يُلقيه إليه العقل الجمعي بلا وعي ولا إرادة .

ب- الدِّين والقيم والأخلاق ناشئة عن العقل الجمعي .

ج – العقل الجمعي دائم التغيُّر ؛ ولذا لا يمكن ثبات الدِّين والأخلاق والقيم ، بل إنها تتغيَّر تبعاً لتغيُّر العقل الجمعي ، وهذا التغيُّر لا يمكن إيقافه ؛ لأنَّه من خارج الذات. وقد استدلَّ على ما ذهب إليه بما وقع في الثورة الفرنسية من تصرفات ، قام بها أناس عاديون لا يمكن أن يقدموا عليها في الظروف العادية ، مما يدلُّ على أنَّ تصرفات الفرد نابعة من العقل الجمعي .

وهكذا نرى أنَّ هذه النظرية تُلغي ثبات الدِّين والقيم ، وترى أنَّ كل محاولة للمحافظة عليها إنما هي محاولات عابثة ؛ لأنها تقاوم تغييراً حتمياً آتياً من خارج الذات !!

العلمانيـــة

معنى العلمانية :

العلمانية هي الترجمة لكلمة (Secularism) ؛ وهي ترجمة مُضلِّلة ؛ لأنها توحي بأنَّ لها صلةً بالعلم ، بينما هي في لغاتها الأصلية لا صلة لها بالعلم ، بل المقصود بها في تلك اللغات : إقامة الحياة بعيداً عن الدِّين ، أو الفصل الكامل بين الدِّين والحياة ، وأقرب ترجمة لها هي : (اللاَّدينية) ؛ لأنَّ نبذ الدِّين وإقصاؤه عن الحياة هو لُبُّ العلمانية .

س/ ما هي الأسباب التي أدَّت بأوربا إلى العلمانية ، أو عمَّقت هذا الاتِّجاه فيها ؟

ج/ هناك أسباب كثيرة ؛ من أهمِّها ما يلي :

١- طبيعة الدِّين الكنسي وطغيان رجاله .

٢- دور اليهود في تنفير أوربا عن الدِّين ؛ وذلك من خلال طريقين مترابطين :

أ- طريقٌ نظري : وهو عبارة عن النظريات العلمية التي أفسدت القيم ؛ كنظرية دارون ، وماركس ، وفرويد ، ودور كايم .

ب- طريق عملي : وهو عبارة عن الإفساد الفعلي للقيم ، فبعد الثورة الصناعية تمكَّن اليهود من السيطرة على معظم مؤسسات المجتمع الأوربي ؛ كالجامعات ووسائل الإعلام ، والبنوك ، والمصانع ، وغيرها ، وسخَّروا هذه الإمكانات الهائلة لإفساد القيم.

٣- المذاهب الفلسفية التي سادت أوربا إبَّان الثورة الفرنسية وبعدها إلى اليوم ؛ كالمذهب المادي ، والمذهب الوضعي ، والمذهب الذرائعي (البراجماتية) ، وقد أهمل المؤلِّف هذا السبب وكنَّا نتمنَّى لو فصّله .

الدِّين الكنسي وطغيان رجاله :

في كلام المؤلِّف عن العلمانية تفصيل لهذا السبب دون غيره ، ويبدوا أنَّ ذلك لأهميته في ظهور العلمانية ونقدها أيضاً ، وسنتكلَّم عن هذا السبب تبعاً للمؤلِّف من خلال النقاط التالية :

أ- ا لدِّين الكنسي كان عقيدةً بلا شريعة :

فالدِّين الذي دانت به أوربا منذ القرن الرابع الميلادي كان عقيدة بلا شريعة ، و لم يمتدَّ الدِّين المسيحي إلى كثير من مجالات الواقع ؛ ولهذا كانت أوربا تُحكم بالقانون الروماني الذي لم يحتوِ على نظام حُكْمٍ عادل ، فكان من الطبيعي أن تنبذ أوربا هذا الدِّين وتختار بدلاً عنه الديمقراطية العلمانية .

وهذا بخلاف الإسلام ؛ فإنه قد امتدَّ إلى الواقع بجميع جوانبه منذ فجر الإسلام ، وكان عقيدةً صادقة وشريعةً عادلة ، ولهذا نُلاحظ أنَّ أهل البلدان المفتوحة لم يرتدُّوا عن الإسلام حتى بعد سقوط دولته ، ونُلاحظ – أيضاً – أنَّ العدل كان ممتداً حتى شمل المسلمين والذمِّيين .

ب- أنَّ الدِّين الكنسي كان أُخروياً لا يهتم بالحياة الدنيا بل يحتقرها ويدعو إلى إهمالها في سبيل الحصول على الخلاص ؛ ولهذا حين وُلِدت النهضة الحديثة لم يكن هذا الدِّين بطبيعته يُساعدها ؛ فنشأت بعيدةً عنه .

وهذا بخلاف الإسلام الذي حثَّ على العلم ورغَّب فيه وحثَّ على عمارة الأرض ؛ والنهضة العلمية صاحبت الإسلام منذ بدايته حتى بلغت قمَّتها في عهد الدولة العباسية ، وفي عهد الدولة الأموية في الأندلس التي كان بها مراكز علمية يدرس فيها حتى الأوربيين .

ج- أنَّ الدِّين الكنسي كان يُصغِّر من شأن الإنسان ويُعظِّم من شأن القدر ، حتى وصل بأتباعه إلى عدم السعي إلى تغيير شيء ، وحصر فاعليَّة الإنسان في العمل بالدِّين كما تفرضه الكنيسة ، فكانت ردَّة الفعل تعظيم الإنسان على حساب جانب الألوهية والقدر ، وظهرت العلوم الإنسانية ، وهي بالمفهوم الغربي تعني العلوم النابعة من الإنسان ، فلا تعتبر الوحي مصدراً لهذه العلوم .

ومما يدلُّ على غلو الغرب في تعظيم الإنسان كتاب (الإنسان يقوم وحده) ؛ أي أنه ليس بحاجةٍ لإله يقيمه ويُدبِّـــــره !! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥] ، وكذلك كتاب (الإنسان في العلم الحديث) لجوليان هكسلي ، ومما قال فيه : (قد كان الإنسان يخضع لله بسبب الجهل والعجز ، والآن بعد أن تعلَّم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله فيُصبح هو الله) .

وهذا بعكس الدِّين الإسلامي الذي لا يُلغي فاعلية الإنسان مع القدر ، بل يُبيِّن له أن الأمور وإن كانت تجري بقدرٍ إلاَّ أنَّ له حُريِّة الاختيار والجزاء منوطٌ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨] ، والإسلام لا يفرض على أتباعه آراء المجتهدين كما تفعل الكنيسة ، بل يأمر باتِّباع الدليل حيث كان ، وكذلك لا يُصغِّر من شأن الإنسان كما تفعل الكنيسة ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] ، وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] .

د- الدِّين الكنسي كان يحجر على العقل ، وهذا الحجر بفعل الكنسية لا بوصفه ديناً من عند الله ، وحين احتكَّت أوربا بالمسلمين في الأندلس وغيرها ؛ وبدأ العقل الأوربي في التفكير كان للكنيسة موقف سلبي من حريِّة الفكر ، فنفر المفكرون من

الكنيسة ، وازداد نفورهم بمرور الزمان ظهر ما عرف بالفكر الحُرّ ، وكـــان يعني الإلحاد ، ومن أبرز من يُمثِّل هذا الفكر ملاحدة عصر التنوير !

وهذا بخلاف الإسلام الذي لا يحجر على العقل ، بل إنه قائم على الدعوة إلى التفكير حتى في أساسياته وهي الإيمان بالله ورسوله :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾[سبأ: ٤٦] .

مجالات العلمانية :

سنعرض الآن الصورة الراهنة للعلمانية في أوربا ؛ وذلك في أهم المجالات :

أ- مجال السياسة : كانت الكنيسة تُخضع الأباطرة لهواها وسلطانها بمقتضى نظرية التمثيل الإلهي ، ومع مرور الزمن بدأ الأباطرة يتمرَّدون على سلطان الكنيسة ، وصاحَبَ هذا التمرُّد ظهور نظرية الحق الإلهي المقدَّس ، وكان صاحِبُ هذه النظرية هو (ميكافيلي) صاحب كتاب (الأمير) ، وقد قرَّر في هذا الكتاب نظريَّتين :

النظرية الأولى : الحق الإلهي المقدَّس الذي يحكم به الملوك والأباطرة .

النظرية الثانية : الغاية تُبرِّر الوسيلة ، وكان لهذه النظريِّة بالذات أخطر الآثار ؛ حيث أعطت حكَّام أوربا شرعية الوسائل الخسيسة في سبيل تحقيق غاياتهم .

ب- مجال الاقتصاد : كانت أوربا تخضع لمظالم الإقطاع ، وحين قامت الثورة الصناعية قامت ربويِّة على يد اليهود الذين أسَّسوا الرأسمالية ، وقد تأثَّرت الرأسمالية بالميكافيلِّيه " الغاية تُبرِّر الوسيلة " ، فسعت لتحقيق الربح بالوسائل الظالمة ، وقد ذكر المؤلِّف من ذلك ما يلي :

١- الرِّبا ، وهو جوهر الرأسمالية .

٢- أكل مال الأجير وعدم توفيته حقَّه .

٣- إفساد فِطر الناس وأخلاقهم ليُقبلوا على مُنتجاتٍ ليس فيها فائدة ، ولكنها تدرُّ على الرأسمالية أرباحاً طائلة .

٤- الاحتكار .

ج- مجال الاجتماع : كانت العلاقات الاجتماعية في أوربا تحكمها أعراف نابعة من الدِّين ؛ فكان هناك المحافظة على الأُسرة والعفَّة وقوامة الرجل ، بل إنَّ هناك المحافظة على الحجاب الكامل كما تدلُّ على ذلك الصور الفوتغرافية لتلك المرحلة ، وكان هناك التكافل الاجتماعي . وحين جاءت الثورة الصناعية بدأ التغيير يسري للعلاقات الاجتماعية رويْداً رويْداً ، وكانت البداية بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، واشغالها بالعمل خارج المنزل ، مما ترتَّب عله التفريط في تربية النَّشء وتفكُّك الأُسرة على المدى البعيد ، حتى أصبح كل فردٍ من الأُسرة في شبه عزلة عن الآخر ، وحتى ضعفت علاقة الأولاد بالأسرة وبخاصة في مرحلة الكِبر ؛ فالأبوان لا يكادان يجدان من يطرق عليهما الباب فينشُدان سلواهما في الكلاب كما يقول المؤلِّف .

ج- مجال العلم : رأينا كيف بدأ الصراع بين الكنيسة والعلماء ، وأنه انتهى إلى خروج العلم عن نطاق الدِّين ، بل وقوفه منه في موقف التقابل والتضاد ؛ فإذا أردتَّ أن تتعلَّم فلا تتديَّن ، بل إنَّ مُجرَّد ذِكْر اسم الله يُفسد طبيعة البحث العلمي .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنَّه استُخدِم لإفساد العقيدة ؛ فبين الحين والآخر تخرج أبحاث علمية تزعم أنَّ الإنسان قد خلَق الخلية الحيَّة في المعمل ، والهدف من هذا الدَّجل العلمي ؛ نشر الإلحاد والقول بأنَّ الخلْق أمر طبيعي اهتدى العلم إلى سِرِّه !!

وكذلك استُخدِم العلم لإفساد الأخلاق ، وأوضح مثال على ذلك : حبوب منع الحمل التي تُباع في الغرب بسعر مُخفَّض لتكون في متناول الجميع مع ما فيها من أضرار ، وكل ذلك ليتسنَّى نشر الفساد في الأرض .

د- مجال الأخلاق : زحفت العلمانية إلى الأخلاق كما زحفت إلى باقي المجالات ، وربما كان تأثيرها في هذا الجانب أعتى من غيره ، وأول مجال أُزيحت عنه الأخلاق هو مجال السياسة ؛ فالغاية تُبرِّر الوسيلة ، ومعنى ذلك : ممارسة السياسة بلا أخلاق .

ثم أُزيحت الأخلاق من المجال الاقتصادي بتحليل الربا وشنِّ الحروب من أجل إيجاد أسواق لتصريف البضائع ، إلى غير ذلك من مظالم الرأسمالية المعروفة .

ثم أُزيحت الأخلاق من مجال العلم والفكْر ، ولم يَعُد يُحِسُّ العلماء ولا المُفكِّرون بأمانة العلم ؛ فحفلت وسائل الإعلام والكتب والمؤلَّفات بأنواعٍ من التضليل والكذب والخداع الذي يحمل لَبُوس العلم !

وأخيراً ؛ أُزيحت الأخلاق من مجال العلاقات الجنسية ، وأصبح الجنس مسألة بيولوجية ليس لها علاقة بالأخلاق ، وهكذا أُفرغت الأخلاق من مضمونها ، بل إنَّ الأخلاق بدأت تُناقش هل لها قيمة في ذاتها أو أنها من صُنْع العقل الجمعي كما يقول دور كايم ، أو مُجرَّد انعكاس للوضع المادي والاقتصادي كما يقول ماركس .

هـ- مجال الفن :

كان الفن في أوربا فنَّاً دينياً ؛ بمعنى أنه موجَّهٌ لخدمة الدِّين والقيم المُستمدَّة منه بالشِّعر أو النثر أو الرسم أو صناعة التماثيل ، وهذا مع ملاحظة أنَّ الدِّين قد طرأ عليه التحريف والتبديل ، وحين زحفت العلمانية على الحياة الأوربية كان الفن من أبرز المجالات التي أثَّرت فيه العلمانية ، فظهرت مدارس أدبية علمانية كثيرة منها :

١- المدرسة الواقعية : وقد ظهرت في أوربا كردَّة فعل لخيال الرومانسية المُسرف ، وردَّت الفنَّ إلى الواقع ، وأعطت الواقع الهابط شرعية الوجود ، ومن ثمَّ فلا ينبغي تعديله ، وكانت النتيجة مزيداً من الهبوط .

٢- المدرسة السريالية : وهي أدب ما فوق الواقع ، ويعتمد الإنتاج الأدبي لهذه المدرسة على اللاَّشعور واللاَّمعقول ، والرؤى والأحلام ، ولهذا يمدحون التناقض والجنون ، ويتفنَّون في وصف الرغبات الجامحة والمصادفات العجيبة .

٣- المدرسة الوجودية : وهي مدرسة " جان بول سارتر " وهو فرنسي يهودي ، رأى أنَّ الكون والحياة لا هدف له ولا غاية ، وكله ضلال وعبث ، والحلُّ في نظره أن يعيش كل إنسان وحده ، وأن يُحقِّق وجوده بأن يفعل ما يرى أنه الحق والحسن ، وقد تجلَّى فكره في مسرحية (الجحيم هو الآخرون) وغيرها من كتبه . وهذا يعني أن يتَّبع كل إنسان هواه ويتحلَّل من القيم الدينية إذا خالفت ما هو حسنٌ في نظره .

٤- أدب الجنس المكشوف : فقد ذكر المؤلِّف ما خلاصته ؛ أنَّ في تاريخ البشرية آدابٌ تُعالج الجنس بقصد الإثارة ، ولكنها تأخذ في الأدب مكاناً منـــزوياً ، والجديد في العلمانية إعطاء الشرعية لهذا الفن ، ووضع مُنتجيه في قائمة الأبطال والمشاهير ، ونتيجةً لذلك ظهرت آلاف المسرحيات والقصص والأفلام التي تعْرِض الجنس وتروج له بطريقة محمومة ؛ أفسدت كثيرا من فطر البشر .

٥- الحداثة الأدبية : بدأت في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي في باريس ، ومن أبرز من يُمثِّل هذا الاتِّجاه " بودلير " و " مالارميه " ، وقد سرى هذا المذهب إلى البلاد العربية عن طريق رموزها ؛ كـــــ (يوسف خال ، وأدونيس ، والبياتي) وغيرهم ، وتسلَّلت تحت ستار التجديد في شكليات الشعر لتتمكَّن من الوصول إلى هدفها ؛ وهو كما يقول أدونيس : (هدم البُنية التقليدية السائدة في الفكر العربي) ، وذلك يعني هدم التراث كله ؛ الدِّين ، واللغة ، والقيم ، والأُسرة ، حتى يتم تغيير المجتمع وتغريبه ، وهي بهذا الهدف تلتقي مع الليبرالية .

٦- البنيوية : أسَّس هذه المدرسة " فرديناد سوسير "، وتتعامل البنيوية مع النص الأدبي كبُنية واحدة ، وتُركِّز على ما هو لغوي ، وكذلك على دراسة العلاقات بين بُنى النص بقطع النظر عن مفرداته ، والقراءة البنيوية تعزل النص عن الظروف التي وُجِد فيها ، وتعزل النص عن صاحبه ؛ وهذا ما يُسمَّى (بموت المؤلِّف) ، وبما أنَّ أصحاب هذا الاتِّجاه إنما يؤمنون بالواقع ؛ فإنهم يتجاهلون في تحليل النص القيم وكل ما لا تقبله عقولهم حتى وإن جاء به الشرع ، ومما هو معروف عن البنيوية أنها تُزيح القدسية عن النص الديني أثناء التحليل والقراءة البنيوية.

٧- ما بعد البنيوية (التفكيكية أو التقويضية) : وهو منهج نقدي أسَّسه الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا ، وهي نقيض البنيوية ؛ فالسُّلطة في البنيوية للنص ، وفي التفكيكية للقارئ ، فهو الذي يُحدِّد دلالة النص ، ومما يذكرونه في هذا الصدد مقولة (الحضور والغياب) ؛ فاللفظ يُمثِّل الحضور ، والمعنى يمثل الغياب ، ويكون دور القارئ فَهْمُ هذا الغائب بناءً على آلياتٍ تفكيرية ، وهذا يعني أنه لا يستطيع قارئٌ مُعيَّن أن يزعم أنه وصل إلى المعنى النهائي الذي لا يقبل النقاش .

والهدف النهائي من هذا المنهج كما هو واضح ؛ نسف الفكر الديني الذي يقوم على معاني محدَّدة للألفاظ والحقائق ، وهم يُصرِّحون بذلك ؛ فيقولون إنَّ الفكر الماورائي أو الميتافيزيقيا صَرْحٌ يجب تقويضة ، ثم لا يُقدِّمون بديلاً عن المُسلَّمات الغيبية ، فيبقى القارئ في عماية محيرة . وهذا يلتقي مع هدف اليهود في نسْف الدِّين والقيم ، ولهذا رأى المسيري أن الأفكار الرئيسة للتفكيكية يهودية الأصول !!

العلمانية والاسلام

سنتكلم على عجل عن موقف الإسلام من العلمانية ، وآثار التطبيق العلماني على الإسلام ؛ وذلك في النقاط التالية :-

١- العلمانية تعني قصْر الدِّين على العقيدة والعبادة ، وهذا يعني تعطيل فقه المعاملات كلِّه وكذلك فقه الجنايات كله ، ولاشك أن هذا يخالف روح الإسلام وإجماع المسلمين على مدى القرون .

٢- بناءً على ذلك ؛ فإنَّ العلمانية تعطي حقَّ التشريع في المجالات السابقة للقانون الوضعي ، وهو يخالف نصوص القرآن الصحيحة في الإنكار على من حكم بغير شرع الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] .

٣- الليبرالية - أي الحرية الشخصية - من مبادئ العلمانية ؛ فهي تعطي كل فرد الحرية الشخصية حتى لو بلغت به إلى ارتكاب المحرمات ، أو حتى الإلحاد ، ولا تبيح لأحدٍ أن يتدخَّل في حريته ، وهذا يعني تعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي من مقوِّمات الدِّين الاسلامي .

٤- العلمانية تراثٌ غربي خالص وُجِد لظروفٍ معينةٍ سبق تفصيلها ، وهذه الظروف لم تُوجد عند المسلمين ، بل إنَّ الإسلام على العكس من ذلك ؛ فهو عقيدة وشريعة ، وهو دينٌ وحياةٌ ، وهو إيمانٌ بالقدر وبفاعلية الإنسان ، وهو يدعو إلى العلم والفكر المستنير ، ويعطي للفرد حريةً بضوابط محدَّدة تعود بالخير على الفرد والمجتمع.

الديمقراطيـــــــة

معنى الديمقراطية

الديمقراطية كلمة يونانية تعني سلطة الشعب ؛ أي الحكم الذي يكون السلطان فيه للشعب . وأول من مارس الديمقراطية هم الإغريق في مدينتي أثينا وأسبرطة ، وكان يُطلق على تلك الحكومة اسم حكومة المدينة ، وقد انتهت هذه الحكومة بدخول أوربا تحت حكم الرومان القائم على النظام الاقطاعي ؛ أي تسلُّط النبلاء والأشراف على الشعب ، وقد استمر هذا التسلُّط حتى بعد اعتناق الرومان للمسيحية ، بل إن الكنيسة كما رأينا ساندت النظام الاقطاعي .

وقد استمر النظام الاقطاعي حتى كانت الثورة الفرنسية في القرن الثـــامن عشـــر ، فسقط الاقطاع ورجعت أوربا الى تراثها القديم ، فوقع اختيارها على الديمقراطية ، و لم تكن الديمقراطية كما نراها الآن في غرب أوربا وأمريكا ، فلم تصل الى هذا الوضـــع الذي نراه إلاَّ بعد نضالٍ وتضحياتٍ استمرَّت قُرابة قرْنٍ من الزمان .

معالم الديمقراطية

تعني الديموقراطية حكم الشعب للشعب ، وبطبيعة الحال اقتضى الأمر وجود ممـــثلين للشعب يتكون منهم البرلمان ، وأهمُّ أعماله (رقابة الميزيانية) إضافة إلى باقي الأعمال ؛ كتقديم المشروعات والمقترحات وغير ذلك . ومن أهم ما في الديمقراطيـــة الحقـــوق والضمانات ، ولهذا سنتكلَّم عنها قليلاً بما يتناسب مع الوقت المتاح .

أولاً : الحقوق .

وهذه الحقوق تشمل الامور التالية :-

١- حق الانتقال : فقد كان هذا الحق غير مكفول في عهد الاقطاع ، وبعد الثـــورة الفرنسية تقرر هذا الحق تدريجاً حتى أصبح حقاً كاملاً .

٢- حق العمل : لم يكن هذا الحق معروفاً في ظلِّ الاقطاع ، وبعد الثورة الصـــناعية

كَثُرَ توافد الفلاحين إلى المدينة التي لم تكن تستوعب الجميع ، فكَثُرَ العاطلون عن العمل ، وبرزت المشكلة وازدادت حِدَّةً مع الأيام ، وتحت تأثير الإضرابات المستمرة وضغط الشيوعية العالمية تقرَّر هذا الحق نظرياً وإن لم يتقرَّر كاملاً حتى الآن .

٣- حق التعليم : لم يكن في عهد الاقطاع للتعليم شأن يُذكر ، وكانت دائرته ضيقة فقد كان قاصراً على بعض الأغنياء ، الذين يُعلِّمون أبناءهم في القصور ، أو بعض الفقراء الذين يُعلِّمون أبناءهم العلم الديني ، وبعد الثورة الفرنسية والصناعية ظهرت أهمية التعليم في تحسين المستوى المعيشي ؛ فبدأت المطالبة بحق التعليم للشعب كله ، وقوبلت هذه الدعوة بكثيرٍ من الاعتراضات ، ولكن تحت الضغط والتضحيات تقرَّر حق التعليم لجميع أبناء الشعب وبناتهم إلزامياً ، وإن اختلفوا في مرحلة الالتزام ؛ هل تُحدُّ بسنةٍ معينة أو بمرحلة محددة .

٤- الحقوق السياسة : وتشمل حق الانتخاب والترشيح وحرية الكلام وحرية الاجتماع وحق الاحتجاج ، وخلاصة الحقوق السياسة أن يكون للشعب حق الإشراف على شؤون البلاد ، ويتخذ ذلك صورتين متكاملتين :

أ- التمثيل النيابي : ويحوي حق الانتخاب ، وحق الترشيح لدخول البرلمان ، وقد كان هذا الحق في ابتداء الديمقراطية وقفاً على الأغنياء ، ورويداً رويداً خُفِّفت القيود على هذا الحق حتى أصبح من حق أي انسان بلغ إحدى وعشرين سنة وأجاد القراءة والكتابة ولم يصدر ضده حكم في قضية مخلة بالشرف أن يُرشِّح نفسه للبرلمان ، وكذلك حق الانتخاب ، فمن بلغ إحدى وعشرين سنة وكان مقيداً في الدائرة الانتخابية ولم يصدر ضده حكم مخل بالشرف فمن حقه الانتخاب .

ب- حق الاجتماع وإبداء الرأي خارج البرلمان : ويحوي حرية التعبير عن الرأي عن طريق الكتابة في الصحف أو الخطابة في المنتديات ، وكذلك يحوي حق الاجتماع بإذن رسمي من الدولة ؛ كالإضراب عن العمل أو المظاهرات السلمية ، وهذه الليبرالية (الحرية) أبرز سمات الديمقراطية عند أهلها وإن كانت مشتملة على كثير من العيوب

كما سيأتي إن شاء الله .

ثانياً : ضمانات الديقراطية .

١- ضمانة الاتِّهام : وتعني أن لا يُؤخذ الناس بالظِّنَّة ، وإنَّما بتهمة حقيقية ؛ فالمُتَّهم بريءٌ حتى تثبت إدانته ، خلافاً لما كان سائداً من قبل من أنَّه مُتَّهمٌ حتى تثبت براءته .

٢- ضمانة التحقيق : بمعنى أن تكون الأدلَّة المادية أو القرائن هي عماد التحقيق وليس سحب الاعتراف من المُتَّهم عن طريق الاستدراج أو الإكراه أو غير ذلك .

٣- ضمانة الحكم : بمعنى أن يُحكم على المُتَّهم بالعقوبة التي يُقرِّرها القانون بلا زيادة ، ويكون للمحكوم عليه حق استئناف الحُكم إذا رأى أنه قد حيف به .

٤- ضمانة المحاكمة : وهي حق المُتَّهم في إقامة محامٍ يدافع عنه يختاره بنفسه إذا كان يملك دفع أتعابه ، أو تختاره المحكمة إذا كان لا يملك ذلك .

٥- ضمانة التنفيذ : بمعنى أن تُنفَّذ العقوبة التي قرَّرتها المحكمة دون زيادة ، وكذلك حُسْن معاملة المجرم في فترة العقوبة .

وقد فصَّل المؤلِّف في هذه الضمانات بأكثر مما ذُكِر بكثير فراجعها للفائدة من (ص ١٩٧ إلى ص ٢٠١) .

اللِّيبرالية والديمقراطية

رأينا أنَّ من أبرز ما في الديمقراطية الحقوق والضمانات ، ومن هذه الحقوق حقُّ الحُرِّيَّة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية ، وهذه هي الليبرالية ؛ فالليبرالية تعني الحرِّيَّة وبخاصةٍ في المجالات التالية :

١- الحُرِّيَّة السياسية : بمعنى أن يكون للفرد حقُّ التعبير عن رأيه في الصحف

والمنتديات وغيرها ، وكذلك يحقُّ له الانتماء إلى الأحزاب السياسية ، إلى آخر ما ذكر أثناء دراسة الحقوق السياسية .

٢- الحُرِّيَّة الاقتصادية : وهي التي نادى بها " آدم سميث " في كتابه (ثروة الأمم) ؛ فقد رأى أن يكون السوق حُرَّاً يحكمه قانون العرض والطلب ، ويكون دور الحكومات قاصراً على منع العنف وإقرار الأمن دون تدخُّل لحماية الضعفاء ، أو صيانة الأخلاق العامة . وقد أدَّى العمل بهذا المذهب إلى استبداد الأقلية الرأسمالية بجهود الأكثرية العاملة ، ومن هنا نشأت الأحزاب الاشتراكية التي تُدافع عن العمَّال ، وقد أفلست ليبرالية "سميث " ومالت الحكومات في العالم إلى التدخُّل لضبط السوق .

٣- الحُرِّيَّة الدينية : بمعنى أن يكون للفرد حقُّ التديُّن بأي دينٍ شاء ، وله كذلك حقُّ الإلحاد دون أن يكون لأحدٍ حقُّ التدخُّل في قناعاته ومواقفه الدينية .

وهناك من ينادي بالليبرالية في المجتمعات الإسلامية ويرى أنَّ من ضرورات الوصول إلى هذه الغاية تحقيق عدَّة أهدافٍ منها :

١- التغريب ؛ فالدعوة للحرية لا بُدَّ أن يُصاحبها الدعوة إلى تبنِّي الثقافة الغربية فكراً وسلوكاً باعتبارها نموذج الحرية في العالم ، وباعتبارها ثقافةٌ آتيةٌ لا محالة مع زحف العولمة .

٢- إزالة القداسة عن الدِّين ليُصبح مادةً للبحث والتحليل والقبول والرفض ، ومجالاً للقراءة التفكيكية التي تسعى لإعادة تفسيره بما يوافق القيم الليبرالية والثقافية الغربية .

٣- حصر دور علماء الدِّين في الجانب الرُّوحي ، واستبعادهم من الحياة العامة كما فعلت أوربا التي لم تتقدَّم إلاَّ بعد أن نبذت الدِّين وراءها .

٤- نبذ التراث ؛ لأنَّ من أُسس الليبرالية قبول الآخر دون شروط مُسبقة ، وهو ما

يرفضه التراث الذي يُقسِّم الناس إلى مؤمن وكافر ، ولكل واحدٍ تعاملٌ يليق به . ومن هنا يأتي هجوم الليبرالية على العلوم الشرعية التي تتعارض في نظرهم مع ثقافة التسامح .

٥- الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل باعتبار ذلك من حقوقها ، وتبنِّي النموذج الغربي للمرأة ، ومن هنا تأتي الدعوة للاختلاط ، والهجوم على الحجاب .

واقع الديمقراطية الليبرالية

رأينا الديمقراطية نظرياً ، ونريد أن نراها واقعياً لنرى هل هي لمصلحة الشعوب ، أم أنها كما يقول المؤلِّف : (مسرحية جميلة خادعة حقق اليهود من ورائها أهدافهم الكبرى في غفلة الأُمميين) أ- هـ .

نرى ذلك من خلال نقطتين :

١- التمثيل البرلماني . ٢ - الحُريِّة الشخصية (الليبرالية) .

أما من جهة التمثيل البرلماني فإن الديمقراطية - كما نعلم - تقوم على التمثيل النيابي ، وهؤلاء الذين يُمثِّلون الشعب في البرلمان ثلاث فئات :

الأولى : فئةٌ تملك من المال ما يُغطِّي كُلْفة الانتخابات ؛ وهؤلاء رأسماليون يُمثِّلون مصالحهم .

الثانية : فئةٌ لا تملك المال ، ولكنها تصل إلى البرلمان عن طريق الانتماء الحزبي ، والأحزاب في الغرب كما نعلم إما رأسمالية أو مُسخَّرة لمصالح الرأسمالية ، ثم إنَّ هؤلاء النوَّاب يحترفون التأييد المطلق إن كان حزبهم هو الحاكم ، أو الرفض المطلق إن كان حزبهم في المعارضة بقطع النظر عن مصلحة الشعب .

الثالثة : فئةٌ حُرَّة تقول الحق ولكنَّهم قِلَّة لا تتعدَّى كلماتهم دائرة البرلمان ؛ لأنَّ القرارات تُؤخذ بالكثرة .

وهكذا يمرُّ القرار لحماية مصالح الرأسمالية ، ويُغضُّ النظر عن مظالمها ، ويصدق قول الشيوعية في الرأسمالية : (الذي يملك هو الذي يحكم) .

أما من جهة الحرية الشخصية فهذا الجانب هو الجانب البرَّاق في الديمقراطية ، ولهذا يسمي الغرب الديمقراطية (بالديمقراطية الليبرالية) أي : التي تقوم على حرية الفرد في أن يعمل ما يشاء ؛كما هو شعار الرأسمالية الشهير (دعه يعمل ما يشاء) و (دعه يمرُّ من حيث يشاء) . واللاَّفت أنَّ الشيوعيين يُطلقون على الديمقراطية الغربية وصف الليبرالية بقصد الذم ؛ أي الديمقراطية التي يتمتَّع فيها الرأسماليون بحرية استغلال الطبقة الكادحة ، وهذا وجهٌ صحيح وهو من الوجوه المظلمة لليبرالية ، ومن الوجوه المظلمة أيضاً ؛ حرية الإلحاد وحرية الفساد الخُلُقي وحرية الاستغلال وحرية إفساد المجتمع من أجل الربح ، ومن خلال هذه الوجوه المظلمة لليبرالية تمكَّن اليهود من تحقيق مخطَّطهم في تحطيم الدِّين والقيم .

أما الجانب المُشرق لليبرالية فهو في الواقع يختلف كثيرًا ؛ فالحرية السياسية – مثلاً– التي تُتيح للفرد اتِّخاذ قراره السياسي تتدخَّل الرأسمالية بخبث في تشكيل رأيه عن طريق وسائل الإعلام ، بل إنها إذا وصل الأمر إلى درجة أنَّ الصوت الحُر يُعارض مصالحها فإنها تتدخَّل لإسكاته مهما كان موقعه ، حتى لو كان رئيساً يحظى بشعبية جماهيرية عريضة ، وقد ذكر المؤلِّف هنا قصة اغتيال (جون كندي) المشهورة فراجعها للفائدة ص (٢١٤) .

الديمقراطية والإسلام

رأينا أن هناك تشابهاً ما ونوع التقاء بين الديمقراطية والإسلام في الحقوق والضمانات وفي تقرير مبدأ الشورى ، ولهذا رأى بعض الكتَّاب أن الإسلام نظام ديمقراطي أو شكلٌ من أشكال الديمقراطية ، وهذا خطأ كبير ؛ فالإسلام هو الإسلام ، والديمقراطية نظامٌ يختلف عن الإسلام اختلافاً جوهرياً من وجوهٍ كثيرةٍ منها :

١- أنَّ الديمقراطية تُعطي الشعب حق التشريع ؛ فالحلال ما أحلَّه الشعب ، والحرام ما حرَّمه الشعب ، وفي الاسلام هذا الحق لله وحده ؛ قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] ، بل إن الاسلام يعتبر إعطاء البشر حق التشريع شركاً في الربوبية ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، فكما أنَّ الله هو الخالق وحده فكذلك له وحده أمر التشريع ، ويعتبر الاسلام طاعة البشر في التشريع من دون الله شركاً في الألوهية ؛ قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] ، وحين سمع عدي بن حاتم رضي الله عنه هذه الآية قال يا رسول الله : ما عبدناهم . قال : (ألم يكونوا يُحلُّون الحرام فتُحِلُّونه ، ويُحرِّمون الحلال فتُحرِّمونه) ، قال : بلى ، قال : (فتلك عبادتهم) ، وهذا واقع الديمقراطية بالفعل ، ولهذا استباحوا الربا والزنا إلاَّ إذا كان عن اغتصاب ، واستباحوا كثيراً من المحرمات ، بل إنَّ بعض الديمقراطيات أباحت الشذوذ الجنسي ، واعتبرت (المثليِّة) شكلاً من أشكال الأسرة القانونية التي لها حقوق الأسرة وضماناتها .

٢- إعطاء البشر حق التشريع لا يمكن أن يُصلح البشر أبداً ؛ لأنهم يتَّصفون بالقصور والعجز والجهل ، ولهذا استباحوا ما اتَّفقت الشرائع على تحريمه ، وقد كان لهذه التشريعات آثارٌ مدمرة في حياتهم ؛ فشاع القلق والأمراض النفسية وتفكك

الأسرة، فلا يمكن أن يُصلح النفوس إلاَّ تشريع فاطرها ؛ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] .

٣- المُشرِّع في الإسلام هو الله وحده ؛ فالحلال ما حلَّله والحرام ما حرَّمه ، والسنة الثابتة كالقرآن في التحليل والتحريم ، فهي كما قال تعالى :﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤] ، ودور البشر في الإسلام هو الاجتهاد في تنزيل الأحكام على الوقائع بطرق الاجتهاد المعروفة ، وأمَّا الديمقراطية فالمُشرِّع ليس هو الله قطعاً ، وإنَّما هو الشعب نظرياً ، وأما واقعياً ؛ فإنَّ الطبقة الرأسمالية هي التي تَسُنُّ من التشريعات ما يحفظ مصالحها على حساب باقي الطبقات ، ولهذا فالناس في ظلِّ الديمقراطية سادةٌ وعبيدٌ ، خلافاً للإسلام الذي يجعل الناس سواسيةً تحت شريعة عادلة .

٤- ترتَّب على إعطاء البشر حق التشريع سيطرة الرأسمالية على الديمقراطية وتمكين اليهود من السيطرة على كثير من الديمقراطيات في العالم ؛ لأنهم أكبر الشبكات الرأسمالية في العالم ، وهذا يعني مزيداً من إفساد الدِّين والأخلاق والقيم ، فهم كما قال الله تعالى :﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾[المائدة: ٦٤] ، ولعلَّ هذا يُفسِّر لنا سِرَّ الانحلال والتدهور الخُلُقي السريع في المجتمعات الديمقراطية .

٥- الدنيا هي محور الاهتمام في الديمقراطية ومَبْلُغ الناس من العلم ، فهم يُغفلون الآخرة ، وإن تحدَّثوا عنها فعلى أساس أنها وَهْمٌ وقضيةٌ غيبية لا ينبغي أن يشغل الإنسان المُتحضِّر أو الواقعي نفسه بها ! وهذا بخلاف الإسلام الذي يُركِّز على الدنيا والآخرة ، ويربط التشريعات والأحكام بجزاء الدنيا والآخرة .

٦- الإسلام يُحافظ على كرامة الإنسان بالمبادئ والقيم التي تحافظ على انسانيته وإشراقة روحه ، ثم يعطيه الحقوق والضمانات ؛ فأولاً يُحافظ الإسلام على عبودية الإنسان لله وحده ، ثم يُحافظ على أخلاقه ، ففي التعامل المالي يُحرِم الرِّبا والاحتكار

والسرقة والمكاسب المحرمة ،كما يُحرِّم السَّرَف والتَّرَف وكَنْزَ المال ، وفي التعامل الاجتماعي يُحرِّم الغيبة والنميمة وينهى عن الفُرْقة والتباغض والتحاسد وعدم المبالاة بالآخرين ، وفي التعامل الجنسي يُحرِّم الفواحش وما يُؤدِّي إليها من الخلوة والتبرُّج والتكسُّر والخلاعة ، وامتداداً لهذا التكريم يعطي الإسلام الحقوق والضمانات في هذا النَّسق المحافظة على عبودية الله وحده ، والمحافظة على الأخلاق وتقرير الحقوق والضمانات ، أما في الديمقراطية فتُهمل جانب الألوهية وتُعلي من شأن الإنسان وهذا الفصام النَّكِد إنما يُدمِّر إنسان الديمقراطية في نهاية المطاف .

٧- في النَّسق السابق أعني المحافظة على الألوهية والأخلاق تأتي الحقوق والضمانات في الاسلام على النحو التالي :

أ- في الاسلام لا يُؤخذ الإنسان بالظِّنَّة ، والأصل في الإنسان ضمان حريته في السكن والحركة والتنقل .

ب- يُقرِّر الإسلام ضمانة المحاكمة ، وأهم جانب في ذلك الحكم بشريعة الله التي يستوي أمامها الناس ، ثم تأتي بقية الضمانات في هذا الجانب ؛ فالقاضي – مثلاً – لا يحكم بالحدِّ إلاَّ إذا استوثق أنَّ المُتَّهم لا عذر له في جريمته ، وكذلك لا يقضي القاضي بعلمه وإنما بالقرائن والأدلة والشهود العدول .

ج- أمَّا ضمانة التنفيذ ؛ فالإسلام يُقرِّرها تقريراً كاملاً ويزيد عليها ردُّ الاعتبار الكامل للمُجرِم بعد تطبيق الحد .

د- وكذلك يُقرِّر الحقوق السياسية ؛ فالحاكم والمحكوم كلهم يخضعون لشريعة واحدة خلافاً لما في الديمقراطية من تحكُّم فئةٍ معينة في رقاب الناس .

هـ- وأمَّا التعليم فهو في الإسلام فرضٌ لا مُجرَّد حق ، والدول الإسلامية على

مدى التاريخ تجُري المعاشات لطلاب العلم ، بل إنَ هذا الشعور امتدَّ حتى إلى المسلمين العاديين ، فكانوا يجعلون جزءًا من أموالهم أوقافاً على التعليم .

و- وحقُّ العمل مُقرَّر في الإسلام ؛ فالدولة المسلمة مسؤولة عن رعاياها ، إمَّا بإعطائهم فرصةً كريمةً للعمل ، وإمَّا بإعطائهم من بيت المال ، بل إنَّ الإسلام وسَّع دائرة التكافل و لم يجعله مهمَّة الدولة وحدها ، بل أمر الله به داخل الأسرة وداخل المجتمع ، فحضَّ القادرين على كفالة غير القادرين ، وجعل ذلك واجباً في بعض الحالات .

ز- وأمَّا حقُّ التعبير فقد جعله الإسلام واجباً لا مُجرَّد حق ؛ وهو مناط خيرية الامة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠] . فالدِّين النصيحة لله ورسوله وخاصة المسلمين وعامَّتهم ، وشرط ذلك أن يكون النُّصْح خالصاً لله وقَصْدُ صاحبه الإصلاح ، لا كما نراه في كثير من النُّظم الديمقراطية من إبداء الرأي والمعارضة لأهواء شخصية أو احترافًا للتأييد أوالمعارضة .

وقد أطال المؤلِّف في ذكر التفصيلات لهذه الحقوق والضمانات في الإسلام مع ذِكْر الشواهد والوقائع التاريخية التي تدلُّ عليها ، فراجعه للفائدة ص (٢٣٦-٢٥٣) . وختاما أود أن ألفت النظر إلى أن الديمقراطية كانت محل جدل كبير منذ ولادتها إلى اليوم ؛ فسقراط رفض الديمقراطية ، وكان العقل المدبر للحزب الثائر ضدها ، وأفلاطون اعتبرها تقوم على مبدأ مدمر ؛ وهو المساواة بين الناس في تقرير السياسة العامة ، مع أن أكثر الناس ليسوا مسلحين بالثقافة الكافية ليختاروا أفضل الحكام ، وأحكم السبل ! وهكذا أرسطو ؛ فقد رأى أن الانتخاب إنما يكون صحيحا إذا كان الناخبون من ذوي الخبرة ؛ فالمهندس مثلا يختار اختيار صحيحا في أمور الهندسة ، والطبيب في الطب وهكذا ! ولهذا رأى أن الأرستقراطية أفضل من الديمقراطية ؛ أي حكم القلة العالمة ببواطن الأمور . انظر قصة الفلسفة ص (٤٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦ ،

١٢٩ ، ١٣٠) ٠ وكذلك الشأن في الفسفة الحديثة ؛ فسبينوزا رأى أنـــه لم يشـــهد التاريخ دولة كان عمرها قصيرا كالدولة الديمقراطية ، و لم تعان أي دولة ماعانته الدولة الديمقراطية من فتن واضطرابات ! ورأى أن عيب الديمقراطية يتمثل في نزوعها إلى تولية المتوسطين من الناس عقلا وقدرة مقاليد الأمور ، مع أن المفروض أن تكون حصرا على ذوي المهارة المدربة ! وهكذا جورج سانتيانا رأى أن شرور الديمقراطية لاتنحصـــر في فسادها وعجزها ، بل أسوأ من ذلك ، وهو طغيانها المميز ؛ وهو عبادة صنم السوية . المرجع السابق ص (٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٥٥٨) .

الشيــوعيــة

تمهيـــــــد

١- الشيوعية بمعناها الأوَّلي تعني الاشتراك في النساء والأموال ، وقد نادى بهذه الفكرة قديماً أفلاطون في كتابه " الجمهورية " ، كما نادى بها مزْدك في بلاد فارس ، ونادى بها في العصر الحديث ماركس وإنجلز .

٢ – تختلف الشيوعية الماركسية أو العلمية عن سابقتها ؛ فشيوعية أفلاطون خاصة بالنخبة المختارة ، التي تربى للحكم ؛ ولهذا استثنى الأكثرية العريضة من مخططه الشيوعي . انظر قصة الفلسفة (٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ١٣٣) ؛ وشيوعية مزْدَك لم تنف الربوبية من أصلها ؛ فقد كان يقول بالأصلين (النور والظلمة) أي إله الخير وإله الشر ، وهذا وإن كان شركاً إلاَّ أنه لم يصل إلى ما وصلت إليه الشيوعية الماركسية من إنكار وجود الله ، وجحد الغيب كله ؛ بما في ذلك اليوم الآخر ، والجنة والنار . انظر فجر الإسلام ص (١٠٩ — ١١١) .

٣- الشيوعية الماركسية ليست كسابقتها ؛ وإنما هي تصوُّر للكون والإنسان والحياة، وعن هذا التصوُّر ينبثق المذهب الشيوعي الاقتصادي ، ولهذا لا بُدَّ من دراسة الشيوعية الحديثة من الجوانب التالية :

أ- المادية الجدلية . ب — المادية التاريخية . ج — المذهب الشيوعي الاقتصادي .

٤- رأينا أنَّ الديمقراطية الليبرالية تُقدِّس المِلْكية الفردية وتُعلي من شأنها ، وقد وصل بهم الغلو في هذا الجانب إلى إهدار كثير من حقوق المجتمع في سبيلها ، وقد ترتَّب على ذلك سيطرة الرأسمالية على المجتمع الديمقراطي واستئثاره بكثيرٍ من الامتيازات على حساب القاعدة العريضة من الطبقة العاملة ، وقد كان لهذا الظلم ردَّة فعلٍ عنيفة تمثَّلت

في الدعوة إلى إلغاء المِلْكية الفردية وإحلال المِلْكية الجماعية محلَّها ، وكان هذا هو الأساس النفسي لقبول الشيوعية مع أنها تُصادم الفِطر السويِّة.

٥- تحوَّلت أفكار ماركس وإنجلز إلى دولة قائمة بالفعل ابتداءً من عام ١٩١٧م بعد الثورة الروسية على قيصر ، وقد امتدَّ سلطانها حتى شمل روسيا وما حولها من دول وشمل كذلك دول شرق أوربا والصين ، وامتدَّ إلى شرق آسيا كفيتنام ، وإلى أمريكا الجنوبية ككوبا ، بل إنه امتدَّ إلى دول العالم الإسلامي ، فكان للأفكار الاشتراكية تأثيرٌ واضح في العراق وسوريا من خلال حزب البعث الاشتراكي ، وفي مصر إبَّان عهد جمال عبد الناصر ، وكذلك في ليبيا في عهد القذافي ، وفيما كان يُعرف باليمن الجنوبي ، وكذلك في أفغانستان التي عانت من الشيوعية أكثر من غيرها ، وكان أعظم مركز للشيوعية في العالم في العصر الحديث هو الاتِّحاد السوفيتي الذي انهار قبل أكثر من عشرين عاماً .

٦- كانت الشيوعية بلاءً على العالم كله وعلى المسلمين خاصة ؛ فدمَّرت الدول الإسلامية العريقة ، وهجَّرت كثيراً من أهلها ، وقتلت الكثير منهم وبخاصة في عهد الطاغية " ستالين " الذي قتل من المسلمين نحو ثلاثة ملايين ونصف ، ولا زالت الشيوعية حتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي حيَّةً وموجودةً في العالم ، ولكنها لم تعُد بتلك الحظورة التي عليها كانت إبَّان وجود الاتحاد السوفيتي .

منابع فكْر ماركس

أشار المؤلِّف في هذه الفقرة إلى المنابع التي استقى منها ماركس أفكاره وصاغ منها فلسفته الشاملة للكون والإنسان والحياة وهي :

١- المادية ؛ فليس الشيوعيون هم الذين ابتدعوا الفكر المادي ، وإنما هم في الحقيقة قمَّته ، فقد كان الاتجاه المادي موجوداً في الفِكْر الأوربي واتَّسع نطاقه بعد النهضة

الأوربية الحديثة التي أصبح فكرها إنسانياً كما يقولون ؛ أي أنَّ الإنسان هو مصدر المعرفة دون الوحي . وكان التقدُّم العلمي الذي صاحب النهضة ، ثم اكتشاف نيوتن لقانون السببية قد عمَّق هذا الاتِّجاه الإلحادي الذي كان واضحاً على من عُرِفوا آنذاك بأصحاب الفكر الحُر ! ثم جاءت الفلسفة الوضعية فحصرت العلم والحق في الواقع المادي المحسوس وأهملت الغيب كله !!

٢-الجدلية ؛ كان المنطق الصوري لا يسمح باجتماع الشيء ونقيضه حتى جاء فلاسفة العصر الحديث وأشاروا إلى وجود التناقض في الحياة ومحاولة تفسيره ، فظهر ما يُسمَّى بالفكر الجدلي (الديالكتيكي) ، وكان من أبرزهم (هيجل) ، فزعم أنَّ الدعوى لها مقابل ، وأنهما يجتمعان في جامع الدعوى ومقابلها ؛ فالعقل المُطلق (الله) دعوى ، والعقل المُقيَّد (الطبيعة) مقابل الدعوى ، والجامع بينهما هو (العقل المُجرَّد) وهو الدِّين والقيم والفلسفة ، وهكذا نرى أنَّ هيجل وإن خالف المنطق اليوناني القديم (الصوري) وقال باجتماع النقيضين إلاَّ أنه لم يُلغِ فكرة الألوهية كما فعل ماركس من بعده .

٣- التطوُّر ؛ رأينا فيما سبق أنَّ دارون قال بالانتخاب الطبيعي ، وأنَّ الحياة سارت في سلسلةٍ من التطوُّر بدأت بالكائن الحي وحيد الخلية وانتهت بالإنسان ، وهذا يعني أنَّ الإنسان من إنتاج الطبيعة لا من خلْق الله ، وقد اقتبس ماركس هذه الفكرة من دارون وبنى عليها كثيراً من أفكاره كما سنرى ، بل إنه كان أسوأ من دارون ؛ فقد انحطَّ بالإنسان إلى مرتبةٍ أدنى من الحيوان وهي المادة .

٤- الشيوعية الأولى ؛ فقد زعم ماركس أن المرحلة الأولى من مراحل الحياة الإنسانية كانت شيوعية في الأرض والمأكل والمشرب وحتى الجنس ، وقد اقتبس هذه الفكرة من (فريزر) صاحب كتاب (الغصن الذهبي) ، فقد ركَّز فريزر أبحاثه على القبائل المنعزلة في أفريقيا وآسيا وأستراليا ، واستنبط من أنماط حياتها أن الحياة البشرية

الأولى كانت شيوعية ، كما زعم أن العقيدة تطوَّرت بمرور الزمن من عبادة الأب إلى عبادة الطوطم إلى عبادة الطبيعة ثم التوحيد الذي ما هو إلاَّ مرحلة على الطريق ، وسيحُلُّ في النهاية العلم محلَّه ، والشيوعيون لا يُشيرون لفريزر وإنما لباحثٍ آخر اسمه (مورجان) ؛ لأنه أتى بعد ماركس وأيَّد أفكاره التي ابتدعها بزعمه .

المادية الجدلية :

رأينا أن ماركس أخذ الجدلية عن (هيجل) ، إلاَّ أنه خالفه مخالفةً أساسية ؛ فهيجل لم يُنكر وجود الله ، في حين أنكره ماركس ، ولهذا تسمى جدلية هيجل بالجدلية المثالية، وجدلية ماركس بالجدلية المادية أو المادية الجدلية .

والمادية الجدلية هي تصوُّر للألوهية والحياة يقوم على أساس مادي بحت يُمكن توضيحه من جانبين :

١- أزلية المادة وأسبقيتها في الوجود على الفكر ؛ فالشيوعيون يزعمون أنَّ المادة أزلية أبدية ، وأن جميع الكائنات قد انبثقت عنها ، بما في ذلك الإنسان ، أي أنَّ المادة هي الخالق وأما (الله) فخرافة ابتدعها خيال الإنسان !! والحقيقة الوحيدة هي المادة ، والوحدة التي تجمع الكون هي ماديَّته !! فلا عالَمٌ آخر وراء هذا العالَم المادي المحسوس !! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

٢- قوانين المادة ؛ وهي الترابط والحركة والتطوُّر والتناقض ، وهذه القوانين تحكم الطبيعة وتحكم كذلك حياة البشر ، وسنوضِّح ذلك بإيجازٍ من خلال النقاط التالية :

أ- الترابط في الطبيعة ؛ أي أنَّ الطبيعة كُلٌّ واحدٌ ترتبط فيه الأشياء والحوادث ارتباطاً عضوياً ، ومن ثمَّ فأي حادث في الطبيعة لا يمكن فَهْمه بمعزلٍ عما يُحيط به . وقد طبَّقوا هذا القانون على الحياة البشرية ؛ فقالوا : بأنَّ الأفكار والمشاعر مرتبطةٌ

بالأوضاع والتغيرات المادية ؛ فمثلاً : نظام الرِقِّ في الظروف الحاضرة مضادٌ لطبيعة المرحلة التي نحن فيها ، مع أنه كان سابقاً منطقيـــاً بالنسبة للمرحلة التي هو فيها ، ومثلاً : المطالبة بالديمقراطية في ظلِّ الحكم القيصري كانت منطقية ، وأما في النظام الشيوعي الذي أتى بعدها فليست منطقية .

ب- الحركة في الطبيعة ؛ فقالوا إن في الطبيعة حركة ذاتية أزلية أبدية متجدِّدة ودائمة ، وهكذا الحياة البشرية ؛ لأنها من أشكال المادة . وهذا كما نرى يعني إنكار الخالق ، والقول بأنَّ العالَم لا بداية له ولا نهاية ، وليس هناك يوم آخر يكون الموعد لنهاية حياة البشر على هذه الأرض .

ج- التطوُّر في الطبيعة ؛ وخلاصته أن التطوُّر في الطبيعة حركة تقدُّمية صاعدة تؤدي التغييرات الكميِّة فيها إلى تغيرات كيفية . وهذه التغيرات كما قال ستالين (فُجائية الوقوع ، وكذلك ضرورية الوقوع) .

وقد بنوا على هذا القانون تطوُّراً حتمياً في الحياة البشرية ؛ فزعموا أن للتاريخ البشري خمس مراحل حتمية ؛ وكل مرحلة تعتبر أرقى من سابقتها ؛ فمرحلة الرقِّ أرقى من الشيوعية ، ومرحلة الاقطاع أرقى من مرحلة الرِقِّ ، والرأسمالية أرقى من الاقطاع ، والشيوعية الثانية أرقى من الرأسمالية .

د- التناقض في الطبيعة ؛ فزعموا أن الطبيعة تحوي جوانب متناقضة موجودة في وحِدة لا تنفصم ، وفي صراع مستمر ، وهذا الصراع بين الأضداد هو القوة المُحرِّكة للتطوُّر ، وليس الربُّ ولا القوى الخارجية هي التي تُحرِّك الطبيعة . وقد طبَّقوا هذا القانون على حياة البشر عبر التاريخ ؛ فزعموا أن هذا التناقض موجودٌ في حياة البشر عبر التاريخ في صورة صراع طبقي .

المادية التاريخية :

المادية التاريخية هي محاولةٌ لتفسير التاريخ على الأُسس المادية التي ذكرناها في المادية الديالكيتيكية ، والمادية التاريخية تعني أمرين :

١- التفسير المادي للتاريخ ؛ فزعموا أن حركة التاريخ كلها نابعة من أسباب مادية واقتصادية ، وبناءً على هذا قسَّموا التاريخ إلى خمس مراحل : الشيوعية الأولى ، ثم الرِقِّ ، ثم الاقطاع ، ثم الرأسمالية ، ثم الشيوعية الثانية . وزعموا أن الانتقال من كل مرحلة إلى التي تليها يكون لعامل مادي أو اقتصادي .

٢- التفسير المادي للقيم (الدِّين والأخلاق والأُسرة) ؛ ويقصدون بذلك أمرين في آنٍ واحد : الأول أنها ليست قيماً ثابتةً ولا مُقدَّسة ، والثاني أنها انعكاسٌ للوضع المادي والاقتصادي ، ومن ثَمَّ تتغيَّر الأفكار المُتعلِّقة بالدِّين والأخلاق والأُسرة تغيُّراً حتمياً كلما تغيَّر الوضع المادي أو الاقتصادي .

تقويم النظرية المادية :

أفاض المؤلِّف وأجاد في نقد النظرية المادية بشِقَّيْها ؛ الديالكتيكي والتاريخي ، ونظراً لضيق الوقت سنقتصر على النقاط التالية :

١- دعوى أزلية المادة وأبديَّتها دعوى ليس لها أساس علمي إلاَّ قانون لافوزيه (المادة لا تفنى ولا تُستحدَث) ، وقد ثبت بطلان هذا القانون علمياً بعد اكتشاف الميزان الذرِّي ، بل إن العلماء اليوم في سبيلهم إلى تحديد عمر هذا الكون تحديداً علمياً دقيقاً على ضوء المعلومات التي تُرسلها الأقمار الصناعية .

٢- الزَّعْمُ بأن الإنسان نشأ عن المادة زَعْمٌ لا يقبله العقل ؛ لأنَّ المادة لا تخلق نفسها فكيف تخلق غيرها ؟ ولو سلَّمنا جدلاً أن الإنسان نشأ عن المادة بطريق التطوُّر الذاتي

فلماذا حدث هذا التطوُّر مرةً ثم لم يتكرَّر ، فلم يتطوَّر جزء آخر من المادة للحياة ؟ ولماذا توقَّف هذا التطوُّر عند الإنسان و لم يتطوَّر الإنسان إلى شيء آخر ؟ ..

٣- الزَّعْمُ بأنَّ حقيقة العالَم مُنحصرة في ماديَّته كان بناءً على المعطيات العلمية أيام ماركس وإنجلز ، وقد ثبت بُطلان هذا الزَّعْمِ علمياً بعد تفجير الذرَّة واستخلاص الطاقة من داخلها .

٤- نُلاحظ أن النظرية المادية كانت أسوأ من نظرية دارون ، فانحطَّت بالإنسان من مرتبة الحيوان إلى مرتبة المادة ؛ فزعمت أنه مادة وطُبِّقت عليه قوانين المادة . وهذا من أبطل الباطل بلا شك ؛ فإنسانية الإنسان لا ماديته كما يقول الشيوعيون ، ولا حيوانية كما يقول دارون أجلى من أن يجادل فيها مجادل ، بل إن الداروينية الحديثة تُقرِّر تفرُّد الإنسان وصعوبة إيجاد نشاط له لا يكون فريداً ، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك التعبير التصويري ، وتنويع أساليب الحياة ، والتفكير المعنوي ، والقدرة على الاختيار ، والتفاعل مع القيم ، بل إنه فريدٌ حتى في صفاته البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط وغير ذلك .

٥- نُلاحظ على النظرية المادية أنها ضخَّمت العامل الاقتصادي لدرجة أنها اعتبرته المُحرِّك الوحيد للتاريخ ، والسبب الوحيد للصراع ، ولهذا حصرت الصراع البشري في الصراع الطبقي . وهذا باطل بدلالة التاريخ ؛ فقد قامت في الأرض قبل الإسلام وبعده صراعات كثيرة على غير أساس الصراع الطبقي ، وحركة الفتح الإسلامي كانت لنشر الإسلام في الأرض وتحرير البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وقراءة التاريخ الإسلامي تشهد بصدق ذلك في وقائع لا تُعدُّ ولا تُحصى .

٦- ظاهرة التديُّن وُجِدت في البشرية على مدى خمسين قرناً من التاريخ المكتوب فضلاً عن غير المكتوب ، وتفشِّي الإلحاد في القرنين الأخيرين لا ينقض هذه القاعدة ولا

يُلغي دلالة التاريخ ، نظير هذا وجود الدافع الجنسي على مدى القرون ، فهو دليل على أصالته في الفطرة ، وتفشِّي الرهبانية في المجتمع المسيحي عدَّة قرون لا ينقض هذه القاعدة .

٧- أما الحتميات الشيوعية و الزَّعْمُ بأن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أمرٌ حتمي فدعوى يُكذِّبها الواقع ؛ فمثلاً : تنبَّأ ماركس بحسب حتمياته أن بريطانيا ستكون أول دولة تقع فيها الشيوعية ؛ لأنها في عهده كانت تُمثِّل قمَّة الرأسمالية ، فتنبَّأ بأن الصراع الطبقي سينضج فيها قبل غيرها ويحوِّلها إلى الشيوعية . ومن المعلوم أن بريطانيا لا زالت إلى اليوم رأسمالية .

ويعلم الناس في كل الأرض أن أكبر دولتين شيوعيتين ؛ وهما روسيا والصين قد قفزتا مباشرة من مرحلة الاقطاع إلى مرحلة الشيوعية دون أن تُمرَّ بمرحلة الرأسمالية ، فأين هي الحتميات إذن ؟؟؟

المذهب الشيوعي الاقتصادي :

رأينا أنَّ الشيوعية تصوُّرٌ للحياة ، وعن هذا التصوُّر ينبثق المذهب الشيوعي الاقتصادي ، وهو يقوم على مجموعة من الأُسس يمكن تلخيصها فيما يلي :

١- إلغاء المِلْكية الفردية ؛ يعتبر الشيوعيون المِلْكية الجماعية هي الأصل ، و المِلْكية الفردية نزعة شريرة مُكتسبة ، وهي المسؤولة عن الصراع الطبقي عبر التاريخ ، ولذا يتعيَّن إلغاؤها وإحلال المِلْكية الجماعية محلَّها . ومعنى المِلْكية الجماعية أن الدولة تملك الإنتاج نيابةً عن العمَّال .

وقد تمَّ إلغاء المِلْكية الفردية بصورة حادَّة في عهد (لينين) وجزء من عهد

(ستالين) ، ثم تراجع التطبيق الشيوعي في عهد (خرتشوف) الذي اضطر إلى تمليك الفلاحين جزءاً من الإنتاج لَّما رأى تزايد تراجع المحاصيل الزراعية . وهذا يدلُّنا على أصالة المِلْكية الفردية وأنه لا يمكن إلغاؤها .

أما إحلال المِلْكية الجماعية محلَّها فقد تكشَّف عن أسطورة ضخمة ؛ فالدول الشيوعية تملك كل شيء ، وهي كابوس على المواطن لا نائبة عنه .

٢- إلغاء الطبقات ؛ فالشيوعيون يرون أنَّ المِلْكية الفردية منذ أن ظهرت انقسم المجتمع إلى مالكين وكادحين ، وأصبحت الطبقة المالكة هي التي تستبدُّ وتظلم الطبقة الكادحة ، ولا سبيل إلى إزالة الظلم إلاَّ بإزالة الطبقات والإبقاء على الطبقة الكادحة ، والطريق المؤدِّي إلى ذلك هو الثورة الحمراء ، وحينئذٍ تنشأ دكتاتورية (البروليتاريا) ؛ وهم العُمَّال .

وقد اختلف التطبيق عن هذا المبدأ اختلافاً واسعاً ، وظهرت في المجتمع الشيوعي طبقةً جديدةً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ؛ وهي طبقة الحزب الشيوعي الحاكم الذي يملك الامتيازات الطبقية الكاملة ، في حين أن الطبقة الكادحة هي مجرَّد أصفار مهدرة الحقوق ، ولهذا قال المؤلِّف عنها : (الدكتاتورية الواقعة على البروليتاريا لا دكتاتورية البروليتاريا) أ- هـ .

٣- كفالة الدولة لجميع المواطنين ؛ من مبادىء الشيوعية كفالة كل فرد من أفراد المجتمع في المطعم والملبس والمسكن ، وهذه الكفالة في مقابل تكليف القادر على العمل . وهذا هو الشيء الوحيد الذي برزت به الشيوعية في الواقع ، ولكنها كفالة على الحدِّ الأدنى ، وأيضاً هي في مقابل العمل ، وكذلك يُصاحبها استذلال الدولة الشيوعية للشعب استذلالاً لا يخفى على من له اطِّلاع على أحوال الناس في المجتمع الشيوعي .

٤- المساواة في الأجور ؛ فالشيوعية من مبادئها المساواة بين أفراد الشعب في الأجر والمأكل والمشرب والملبس والمسكن ؛ لأنَّ هذه صورة الشيوعية الأولى بزعمهم . وقد طبَّقت الشيوعية هذا المبدأ بصرامة في أول عهدها بين العمَّال ، ولكنَّه بطبيعة الحال لم ينسحب إلى جميع العاملين ؛ فأجر الطبيب ليس كأجر المُمرِّض ، وأجر المهندس ليس كأجر العامل ، وقد ذكر المؤلِّف أنها برزت في المجتمع الشيوعي طبقة تتقاضى أجوراً عاليةً ، وهي طبقة الفنَّانين ؛ لأنهم يُنفِّسون عن الشعب ضغط الشيوعية الهائل !

٥- إلغاء الدِّين ؛ فالشيوعيون يرون أنَّ إلغاء الدِّين ضرورة ؛ لأنَّه ناشيءٌ من الوضع المادي في العهد الزراعي وقد تغيَّر هذا الوضع ، ولأنَّ الدِّين يُصادم المبدأ الشيوعي الذي يعتبر المادة أصل الفكر . وقد اشتدَّ الشيوعيون في تطبيق هذا المبدأ و لم يكتفوا بتحريم الحديث في الدِّين ، بل وضعوا في المناهج الدراسية درْساً للإلحاد مكان درس الدِّين ، وكذلك اشتدَّ الشيوعيون في محاربة المتديِّنين حتى هجَّروا وأبادوا شعوباً إسلامية كـــاملة ، وقد قتل ستالين وحده ثلاثة ملايين ونصف من المسلمين !!

٦- من كُلٍّ بحسب طاقته ، ولكلٍّ حسب حاجته ؛ وهذا قائمٌ على أساس أن الناس في التطبيق الشيوعي سيرتفعون بمشاعرهم إلى درجة مثالية تجعل الإنسان يعمل بأقصى طاقته ، ويكتفي بمقدار حاجته فقط . وهذا خيالٌ لا يمكن تحقيقه .

٧- إلغاء الصراع ؛ وذلك بإلغاء الباعث عليه وهي المِلْكية الفردية ، وحينئذٍ تسود الشيوعية في العالَم ويعُمُّ السلام . وهذا الفكر الطوباوي يُغني تصوُّره عن الردِّ عليه .

٨- إلغاء الحكومة ؛ فالشيوعيون يعتبرون وجود الحكومة الشيوعية وجوداً مؤقتاً ؛ لأنهم لا زالوا في مرحلة التطبيق الاشتراكي ، ولأنَّ أعداء الشيوعية كثيرون ولا بُدَّ من حكومة تُدافع عنهم ، فإذا وصلنا إلى الشيوعية الكاملة و لم يبق للشيوعية عدوٌّ فحينئذٍ تزول الحاجة إلى الحكومة ويُصبح الشعب يحكم نفسه بنفسه .

وهذه كلها خيـــالات لا تقبل التطبيق ، ولا تَمُتُّ للواقع بصلة ؛ ولهذا فالاسم المطابق لمذهبهم هو الشيوعية الطوباوية لا الشيوعية العلمية كما يـــزعمون !!

العقلانيـــة

تمهيد

ذكر المؤلف ما خلاصته أن العقلانية سارت في طورين :-

أحدهما : عصر سيادة العقل التجريدي ؛ حيث أغلقت كل منافذ المعرفة عدا منفذ واحد ؛ هو العقل ، وتركت العقل وحده هو المحكم في كل شيء !

والثاني : عصر سيادة العقل التجريبي ؛ حيث أصبحت التجربة الحسية المعملية هي المعيار الذي تقاس به حقيقة كل شيء ويرد إليه صدق كل شيء ! فأغلقت كل منافذ العقل إلا منفذ التجربة والحس !!

وهذا كلام سديد ، مطابق للعقلانية التي سادت أوربا في عصر النهضة ، ثم انتقلت إلى العالم الإسلامي ؛ لعوامل عديدة ، أهمها الغزو الفكري . ونظرا لخطورة المذهب العقلي، وخفاء بعض مسالكه فسأفصله قليلا ؛ اعتمادا على الكتاب المقرر ، ومراجع أخرى ، أهمها اثنان : -

١-قصة الفلسفة ، لويل ديورانت . ٢- تاريخ الفلسفة الحديثة ، ليوسف كرم .

العقلانية التجريدية

يمكن أن نعرف هذا النوع من العقلانية بقول المؤلف ص (٥٠٠) : (العقلانية بمعنى : التفسير العقلاني لكل شيء في الوجود ، أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل ؛ لإثباته أو نفيه ، أو تحديد خصائصه) ، أو بأنها : (تمجيد العقل وإعلاء كلمته فوق كل كلمة ؛ حتى يكون له الحكم الأخير فيما يوجد وما لا يوجد ، وفيما يصدق وما يكذب) . انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص (٤١٤) .

والعقلانية بهذا المعنى مرادفة أو مقاربة لمعنى الفلسفة ؛ جاء في الموسوعة العربية الميسرة

ص (١٣١٠) ما نصه (الفلسفة عبارة عن دراسة المبادئ الأولى للوجود والفكر دراسة موضوعية ، تنشد الحق ، وتهتدي بمنطق العقل) .

وأكثر هؤلاء العقلانيين شهرة فلاسفة الإغريق ؛ كسقراط وأفلاطون وأرسطو . وهم الذين سار في ركابهم الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم .

وقد ساد الفكر الإغريقي أوربا حتى عصر سيادة الدين الكنسي ؛ وهو كما ذكرنا في التمهيد حافل بالخرافات التي لا يقبلها العقل ؛ كالتثليث والفداء والعشاء الرباني ! ؛ ولهذا فرضت الكنيسة حجرا على تفكير العقل في مسلمات الكنيسة ، واستعانت من جهة أخرى ببعض الفلاسفة ؛ لصياغة العقيدة الكنسية بصورة يقبلها العقل ، فظهر علم اللاهوت ؛ وهو يشبه علم الكلام الذي عرفه المسلمون عن طريق المعتزلة ٠ انظر : المعجم الفلسفي ٢/ ٢٧٢ ٠ وفي ظل الإرهاب الكنسي انكمش نشاط العقل الأوربي زهاء عشرة قرون ؛ وهي التي يسمونها القرون الوسطى المظلمة . ولما أظل أوربا عصر النهضة ، كان العقل في تشوق لحرية الفكر ، وظل شوقه يتنامى مع تداعي سلطان الكنيسة حتى استطاع أن يتحرر تماما من قبضة الكنيسة ، ولكن كما اتسمت القرون الوسطى بالتطرف في الحجر على العقل فقد اتسمت فترة النهضة بالتطرف في تمجيد العقل ، وإعماله في مجاله وغير مجاله ! وبلغ التطرف ذروته فيما عرف بعصر التنوير حتى أصبح التفكير الحر كثيرا ما يعني الإلحاد ، وحتى عرف عصر التنوير بعصر العقل واللاإيمان ! وبدا آنذاك أن العقل يسعى جاهدا لمحو الدين من الوجود ؛ يقول برنتن : (المذهب العقلي يتجه نحو إزالة الله ، وما فوق الطبيعة من الكون !!) . نقلا عن الكتاب المـــقرر ص (٥١٧) . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا !! وقد سلك العقلانيون لبلوغ هذا الهدف طرقا متعددة ؛ كاعتبار المعرفة العقلية أرقى المعارف ، أو المعرفة الوحيدة الموثوقة ؛ والطعن في المعرفة الدينية ، واعتبارها مناقضة للعقل ! ، وكالسخرية الشديدة بالدين وأهله ، واعتباره مجرد أوهام وخزعبلات ! كما هو ظاهر على أصحاب الأنسكلوبيديا ؛ كفولتير ، ولامتري ، وديدروا ، وأشياعهم . وقد بلغ

الشطط ببعضهم إلى اعتبار الرب مجرد وهم نشأ عن جهل الإنسان وخوفه ؛ كما هو صريح كلام هولباخ ! واعتبر ديدروا التخلص من الإيمان ضرورة لتحقق حرية البشر ؛ فقـــال : (الإيمان بالله يرتبط بالخضوع والإذعان للأتوقراطية { الحكم الفردي } ؛ فهذان يرتفعان ويسقطان معا، ولن يتحرر البشر أبدا قبل أن يشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر كاهن) . قصة الفلسفة ص (٢٧٢) . وقد اتسع نطاق الإلحاد في عصر التنوير حتى أصبح موضة صالونات باريس؛ يقول ويل ديورانت (جعل هلفيوس وهولباخ من الإلحاد في صالونات باريس طرازا بلغ من العصرية حدا دفع برجال الأكلـــــــيروس { أصحاب الرتب الدينية } إلى تبنيه والمناداة به ! وانطلق لامتر يطوف به في ألمانيا محاطا بحماية ملك بروسيا ورعايته !) . قصة الفلسفة ص (٢٩٩) .

وقد حاول بعض العقلانيين تخفيف حدة الهجوم على الدين ، أو الالتواء على أهله لبلوغ الهدف المنشود ؛ فدعا إلى إعادة قراءة الكتاب المقدس بطريقة رمزية لا حرفية ؛ ليبدو متفقا مع العقل ! وهي الفكرة التي نادى بها سبينوزا ، بحجة أن الرسل كانوا يستخدمون الأمثال في الإخبار عن الواقع ! وقد رددها بعده بمدة جورج سانتيانا في كتابه (حياة العقل) ؛ لأن التفسير الحرفي للدين يجعل العقيدة الدينية أشد الأمور منافاة للعقل ! وهي تشبه مارددده الفارابي وابن سينا من قبل ؛ فزعموا أن ما جاء به الأنبياء من أخبار عن الله وعن اليوم الآخر وعن الملائكة لا تطابق الواقع ونفس الأمر وإنما هي مجرد تخييل لاستصلاح الجمهور . انظر : درء التعارض لابن تيمية ١/ ٨ – ١٢ . وتشبه طريقة القرامـــــــــطة في اعتبار الشرائع مجرد رموز لأمور تخالف الظاهر ؛ قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ البقرة: ١١٨ ومما يجدر ذكره هنا أن الدعوة لقراءة الكتب السماوية قراءة رمزية لا تقل خطورة عن الهجوم العقلاني الصريح على الدين ؛ لأنها تعني عزل الكتب السماوية عن توجيه الحياة ، وفتح الباب على مصراعيه لكل متفلسف ؛ ليفسر الدين على هواه ؛ فيصبح الدين كالفلسفة أداة تشتيت لا هداية ؛ إذا يستحيل أن يجمع الفلاسفة رأي

موحد في تفسير كتاب سماوي .

وعلى كل فقد كانت الموجة العقلانية عاتية حتى بدا لكثير من المتسرعين أن العقل قد انتصر على الإيمان ! إلا أن هذه الموجة بدأت تتكسر أمام النقد الفكري المجرد قبل غيره ، ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى تيارين رئيسين كان لهما أثر فكري وواقعي واضح في الحد من غلواء العقلانيين ؛ وهما : -

١-المذهب الطبيعي ؛ وأبرز من يمثله جان جاك روسو ؛ فقد رأى أولوية الشعور على العقل ، وأن للقلب أسبابه التي لا يستطيع العقل أن يفهمها أبدا ؛ ولهذا رأى أن الغريزة هي الأجدر بالثقة من العقل ! وقد حملت آراؤه بذور الثورة على تتويج العقل ؛ فبعد أن كان وحده تقريبا يكافح ضد مادية عصر التنوير وإلحاده فقد اتسع نطاق التيار الرومانتيكي ، وحمل معه إحياء قويا للشعور الديني ! إلا أنهم عالجوا الغلو في الفكر بغلو في الغريزة ؛ فالقلب وإن كان له إحساسه الخاص المختلف عن إدراك العقل إلا أن ذلك لا يعني إهدار قيمة العقل ، والتعويل على الغريزة في كل شيء ؛ كما فعل الرومانتيكيون ؛ يقول ويل ديورانت : (الاعتراض الرومانتيكي على التفكير ابتداء من روسو فشتوبريان حتى بيرغسون ونيتشه وجيمس قد قام بمهمته ، ونحن سنوافق على خلع آلهة العقل من عرشها ، وذلك إذا لم يطلبوا من أن نشعل مجددا الشموع أمام أيقونة الحدس) . قصة الفلسفة ص (٥١٥) .

٢-الفلسفة النقدية ؛ وهي فلسفة كانت ، الفيلسوف الألماني الشهير ، فقد رأى في كتابه (نقد العقل المجرد) أن العقل النظري لا يصح أن يكون معيارا لإثبات كل شيء أو نفيه كما يزعم هؤلاء العقلانيون ؛ لأن خبرة العقل محدودة بظاهرات الحس ، وليس بمقدورنا تطبيقها على العالم اللا ظاهري ؛ ولهذا لا

يصح أن يكون أساسا لإثبات الإيمان كما فعل علماء اللاهوت ، كما لا يصح أن يكون أساسا لنفيه ؛ كما فعل الإرتيابيون من العقلانيين ! وغاية العقل النظري في رأيه أن يترك لنا حرية الاعتقاد بوجود إله عادل دون أن يلزم بذلك؛ ولهذا فإن الإيمان إنما يمكن إرساؤه على العقل العملي ؛ أي الحس الأخلاقي ؛ فهو الذي يلزمنا بالإيمان؛ فشعورنا بأن هذا الأمر أو ذاك خطأ ، والإرادة التي تدفعنا لاتباع الشعور الأخلاقي حتى لو كان لا يلائمنا دليل قاطع على أن قلوبنا مفطورة على الإيمان بأن هذه الحياة إنما هي مقدمة لحياة خالدة ، وبعث جديد يثاب فيه المحسن ويعاقب فيه المسيء ، وإذا كان الشعور الأخلاقي دليل صحة الاعتقاد بالجزاء الخالد فإنه دليل صحة الاعتقاد بالإله العادل ؛ لأن مسلمة الخلود تقودنا للإيمان بعلة لهذا المعلول !

وهكذا نرى أن كانت بنى الإيمان على الشعور لا العقل ؛ ولهذا رأى أن الرومانتيكيين كانوا على صواب حينما قالوا : إن شعور القلب فوق منطق الرأس ، وأن للقلب أسبابه التي لا يستطيع الرأس أن يفهمها أبدا ! ولاشك أن كانت قد أجاد في نقد العقلانيين حتى قيل : إن كانت دمر العقل النظري ، وقيل : بعد قرن من صراع دار بين مثالية كانت وبين مادية عصر التنوير باستطاعتنا القول بأن كانت يبدو على أنه المنتصر ! قصة الفلسفة ص (٣٣٦ ، ٤٥٨) . ونحن نسلم بصحة دلالة الشعور والفطرة على الإيمان، ولكن لا يمكن التسليم بأن العقل لا يدل على الإيمان ؛ بل هو من أعظم أدلة الإيمان ؛ كما سلم بذلك أساطين الفلاسفة ؛ ومن أحسن طرقهم في ذلك استدلال ابن رشد على وجود الله بدليل الاختراع ودليل العناية في كتابه المشهور (الكشف عن مناهج الأدلة) .

وعلى كل فقد مهد نقد كانت للعقل النظري وتمجيده للعقل العملي الطريق

لمذاهب فلسفية عديدة ؛ كمذهب الإرادة لشوبنهاور ، والمذهب الحدسي لبيرغسون، والمذهب الذرائعي لوليم جيمس ؛ وهو أكثرها شهرة وأبعدها أثرا .

المذهب الذرائعي

بلغ تقديم العمل على النظر ذروته في المذهب الذرائعي أو العملي (البراجماتزم)؛ وأبرز أركانه وليم جيمس (ت ١٩١٠ م) ، وأشهر كتبه (في الذرائعية) . والمذهب الذرائعي اتجاه فلسفي مؤداه تحويل النظر إلى البحث في غاية الفكرة ونتائجها عوضا عن البحث في الأوليات والمبادئ . ومن مبدأ تقديم العمل ، والاهتمام بنتائج الأفكار وآثارها، واعتبارها مقياس قيمة كل فكرة ، ودليل صدقها كانت آراء الذرائعيين في أمهات المسـائل على النحو التالي : -

١- خلق العالم ؛ فالاتجاه الروحي يؤمن بأن الله خلق العالم ، والاتجاه المادي يرى أن العالم تكون بفعل الطبيعة ! والذرائعيون يرون أنه لا فرق بين الاتجاهين بالنظر للماضي ، ولا فائدة في البحث في خلاف لا يمكن حسمه ؛ لتعادل حجج الطرفين بزعمهم ! وبالنظر إلى المستقبل ؛ فالاتجاه الروحي هو الأصح والأنفع ؛ لأنه يكفل لنا حياة أخرى تستمر فيها منافعنا ! وآخر هذا القول كما هو واضح ينقض أوله ؛ إذ من ضرورة الإيمان بصحة الاتجاه الروحي في المستقبل التسليم بصحته في الماضي ؛ وأن المعاد يستلزم المبدأ كما أن المبدأ يستلزم المعاد ؛ ولهذا ربط الله بينهما في آيات كثيرة من كتابه ؛ قال تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٤ ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الروم:١١ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس: ٧٩

٢- التوحيد ؛ فالإيمان بإله واحد ؛ بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير غير مقبول في نظر وليم جيمس ؛ لأنه يحبط فاعلية الإنسان حتى يكون كالدمية

مع القدر ! في حين أن الإيمان بتعدد الآلهة يعني وجود تيارات متقاطعة يمكن معها أن يكون لإراداتنا وقوانا أثر في تشكيل العالم وتقرير مصيره !! فالبراغماتية مذهب كثري يعارض الأحدية بشكل مطلق ، ولوليم جيمس كتاب بعنوان (كون متكثر) ؛ زعم فيه أن العالم الأحدي بالنسبة لنا عالم ميت ؛ لأننا لا نستطيع فعل أي شيء في عالم مكتمل ، وإنما ننفذ جبرا ليس بمقدورنا تغييره في حين أننا مع التعدد نعيش عالم الفرصة لا عالم القدر ! وهذا القول ظاهر البطلان ؛ إذ مع التعدد يستحيل صلاح العالم فضلا عن أن يكون محلا للتنافس بين الناس ؛ قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٢٢ والأحدية لا تنافي الاختيار ؛ وأكبر دليل على ذلك أتباع الملل السماوية ؛ فكلهم على التوحيد الذي ملأهم فاعلية حتى غيروا مجرى التاريخ ، وهدموا أعتى الإمبراطوريات ، وأقاموا أرقى الحضارات ، وتركوا أروع الثقافات !

٣- الصفات الإلهية ؛ فالبراغماتية ترى أنه يجب أن نغفل النظر عن الصفات النظرية؛ لأنها عديمة النفع ومن ثم عديمة المعنى ، ونقتصر على الصفات الخلقية ؛ لفائدتها بالنسبة لنا ؛ كالقداسة والعدالة والعلم ؛ فإنها تبعث فينا الخوف ، وكالقدرة والخيرية ؛ فإنها تبعث فينا الرجاء ! والظاهر من كلامه أنه يريد بالصفات النظرية تلك الصفات التي يذكرها علماء اللاهوت والكلام ؛ كالتجريد والبساطة وما أشبهها وإلا فالصفات الثابتة في الكتب المنزلة على الأنبياء كلها تعود بالنفع إلى العباد ، وكل ما ذكره الله منها فإنما هو لحكمة تعود على الرب والعبد ؛ وهو لم يلتفت إلا إلى ما يعود إلى العبد من منفعة ، وأهمل الجانب الأعظم من حكمتها ؛ وهو ما يعود إلى الرب ؛ فإن الله يحب أن يمدح ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى . كما أن إهمال البحث في الأوليات والمبادئ والتركيز على العمل ينافي الفطرة ؛ فإن للإنسان قوة نظرية كما له قوة عملية ؛ فهو حارث همام ، ولابد من

إرضاء النزعتين ؛ فكما أخطأ الفلاسفة التجريديون في إهمال العمل أخطأ هؤلاء في إهمال النظر ؛ ولهذا نرى في كتاب الله تعالى عناية فائقة بتكميل قوة النظر بالعلم النافع وقوة الإرادة بالعمل الصالح ؛ قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ البينة: ٧ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ النحل: ٩٧.

٤- فلسفة الحق ؛ فالحق في نظرهم ليس حقيقة ثابتة لا تتبدل ؛ وإنما هو أمر نسبي تابع للحاجة والمنفعة ؛ فالحق إذن ما طابق المنفعة لا ما طابق الواقع ؛ ولهذا قالوا : إن الإيمان كان ذات مرة صحيحا ؛ لأنه كان آنذاك نافعا ! وقالوا : إن أي فكرة إذا اعتقدناها كان الواقع أفضل فعلينا الإيمان بتلك الفكرة ما لم تتعارض مع منافع حيوية أوسع ! ولا أرى كبير فرق بين هذه الفلسفة وتلك الفلسفة التي نبذها الفلاسفة قبل غيرهم ؛ وهي فلسفة السوفسطائية الذين قالوا : إن الحقائق تابعة للعقائد ! ؛ ولهذا كان من الطبيعي أن تكون آخر كلمات وليـــم جيمس : (ليس هناك من بت ، فما الذي بت فيه كي نبت فيما يتعلق به ! وليس هناك من طوالع لنستطلعها ، ولا من نصيحة لنسديها ! وداعا) . قصـــة الفلسفة ص (٥٧٣) .

العقلانية التجريبية

المذهب العقلي التجريبي أضيق من المذهب التجريدي بكثير ؛ فإذا كان التجريديون قد جعلوا للعقل القول الفصل في الحكم على كل شيء فقد رأى التجريبيون أن العقل لا يمكنه الحصول على المعرفة اليقينية إلا عن طريق الملاحظة والفرض والتجربة ؛ وبما أن التجربة محدودة فالعقل لا يعرف إلا جملة القوانين المكتسبة بالتجربة لا جملة قوانين الوجود . وقد اعتبروا العلم التجريبي هو المجال الحقيقي للعقل ؛ ولهذا أهملوا كل فكر تجريدي أو ميتافيزيقي ! ؛ يقول المؤلف : (أصبحت

التجربة الحسية المعملية هي المعيار الذي تقاس به حقيقة كل شيء ، ويرد إليه صدق كل شيء ؛ فما أمكن إثباته عن طريق التجربة المعملية فهو الموجود على الحقيقة ، وهو الموثوق بصدقه ، وما لا يمكن إثباته عن هذا الطريق فهو إما شيء لا وجود له ، وإما شيء ساقط من الحساب ، ودخلت في هذا القبيل قضية الألوهية بكاملها ؛ بكل ما حولها من وحي ورسل وكتب وبعث ونشور وحساب وجزاء ، أو باختصار قضية الإيمان) . الكتاب المقرر ص (٥٢٨) .

وقد وضع البذور الأولى لهذا الاتجاه العقلي الجديد فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) ؛ بسبب تأكيده على ضرورة الملاحظة والتجريب ، والاهتمام بالممارسة العملية ، ونتائج الأفكار ؛ عوضا عن البحث النظري التجريدي ، والجدل الكلامي ! ورأى أن العلم بحاجة إلى ثورة في مناهج البحث ؛ لأن المناهج السابقة كانت عديمة الفائدة ؛ ولهذا ظلت الفلسفة عاقرا طيلة ألفي عام ؛ فلم تقطع إلا شوطا قصيرا من التقدم ! ورأى أن أفدح أخطاء الإغريق إنفاق الكثير والكثير على الجهد النظري والقليل القليل على المشاهدة والتجربة ! وقد آن الأوان لتحويل مسار العلم للمشاهدة والعمل عوضا عن النظر والجدل ؛ ولهذا وضع الأرغانون الجديد عوضا عن أرغانون أرسطو ، وهو أفضـــــل كتبه ؛ حتى قيل : إنه الذي أشاع الحياة في المنطق! كما قيل عن بيكون : إنه قرع الجرس فلبت جميع العقول النداء ! وقيل عن أفكاره: إنها حركت الأذهان التي حركت العالم ! قصة الفلسفة ص (١٤٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٢) .

وقد سار في ركابه الفلاسفة التجريبيون ؛ كجون لوك صاحب فكرة علم النفس التجريبي الخاضع للمشاهدة ، والمتحرر بزعمهم من اللاهوت والميتافيزيقيا !! ويبدو أن هذا الإغفال لما وراء الطبيعة الذي ورثه الفلاسفة التجريبيون عن بيكون هو سبب اتهامه بالإلحاد أكثر من مرة ، وسبب اعتباره رمزا لحرية الفكر عند الملاحدة؛ حتى إن أصحاب الأنسكلوبيديا أهدوها لروحه ! ولاشك أن منحى فكره دنيوي

عقلاني إلا أن الظاهر أنه لم يكن كهؤلاء الملاحدة ؛ فقد كان يرفض الإلحاد ؛ لأن العقل يرغمه على الإيمان ؛ وفي ذلك يقول : (القليل من الفلسفة ينزع بالإنسان إلى الإلحاد ، لكن العمق في الفلسفة يدفع بعقل الإنسان إلى الدين ؛ وذلك لأن عقل الإنسان إذا نظر إلى العلل الثانية المتناثرة شتاتا فقد يهجع أحيانا فيها ولا يذهب إلى أبعد منها ، لكنه عندما يشاهد سلسلة هذه العلل متحدة مترابطة الحلقات فعندئذ سيرغم العقل على الطيران إلى العناية الإلهية والرب المعبود !) . قصة الفلسفة ص (١٥٦) .

الفلسفة الوضعية

تمثل الفلسفة الوضعية ذروة المنهج العقلي التجريبي الذي وضع بذوره فرنسيس بيكون؛ والفلسفة الوضعية تعني أن العلم اليقيني ما اعتمد على المشاهدة والفرض والتجربة ، وكل مسألة لا يمكن معالجتها بهذا الطريق فهي خارجة عن دائرة العلم اليقيني ! ولهذا كان البحث في الماهيات والعلل والغايات مثار جدل وظنون لا تنتهي ؛ لأن العقل لا يدرك سوى الظواهر الحسية ومالها من قوانين ؛ وهي العلاقات المطردة بين الأشياء . وقد أراد صاحب المذهب الوضـــعي أوجست كونت (١٧٩٨- ١٨٥٧ م) إعادة تنظيم المجتمع ، ووضع حد لفوضى الأفكار التي كانت آنذاك بتوحيد العقول بالعلم الوضعي كما وحدها الدين إبان العصر الوسيط ؛ لأن العلم الوضعي يمثل قمة النضج الإنساني ؛ فتاريخ العقل بزعم كومت مر بحالات ثلاث : -

١-الحالة اللاهوتية ؛ وكان دأب العقل في هذه الحالة البحث عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها ، ومحاولة إرجاعها لمبدأ مشترك ، وتدرج العقل في هذه المرحلة من الإيمان بتعدد الآلهة إلى الإيمان بإله واحد !!

٢-الحالة الميتافيزيقية ؛ وفيها ظل العقل على دأبه في محاولة معرفة المبادئ والماهيات والغايات إلا أنه آمن في هذه المرحلة بقوى الطبيعة عوضا عن الآلهة ! وتدرج من الإيمان بقوى متعددة ؛ كالقوة الكيميائية والقوة الحيوية إلى الإيمان بقوة واحدة هي الطبيعة !

٣-الحالة الواقعية ؛ وهنا يقصر العقل همه على ملاحظة الظواهر ، واستكشاف قوانينها ، ويهمل كل فكر تجريدي أو ميتافيزيقي ! ؛ ولهذا فإن الحالة الواقعية لا تنتهي إلى وحدة مطلقة ؛ كالله في الحالة اللاهوتية ، وكالطبيعة في الحالة الميتافيزيقية ! ولكن إذا كان العقل عاجزا في هذه المرحلة عن الوصول إلى وحدة موضوعية ؛ لتباين الظواهر الحسية ، واستحالة رد قوانينها إلى قانون واحد فإنه يمكنه الوصول إلى وحدة منهجية في جميع العلوم ؛ وهو المنهج القائم على الملاحظة والفرض و التجربة ؛ وبهذا تتحقق الوحدة بين عقول الأفراد ، وتصبح الفلسفة الوضعية هي الأساس العقلي للاجتماع وتحل محل الفلسفة اللاهوتية والميتافيزيقية دون أن تتكلف محاربتهما ، بل تتركهما يسقطان من تلقاء ذاتهما !!

وهذه الحالات التي مر بها العقل في نظر كومت تخالف منطقه الوضعي قبل غيره ؛ إذ لا دليل على هذه الحالات التي تخيلها إلا ظواهر جزئية لوحظت على بعض القبائل المنعزلة في إفريقيا واستراليا ثم بنى عليها هؤلاء وغيرهم القول بتطور العقيدة حتى يحل العلم الوضعي في النهاية محل الدين ! وهي دراسات تفتقر إلى البرهان العلمي ؛ وماضي البشرية يكذبها كما يكذبها واقعهم ؛ فالبشر إنما تدرجوا من التوحيد إلى الشرك كما أطبقت على ذلك الرسالات السماوية وشهد بذلك تاريخ

الأمم عبر القرون ، والعلم الوضعي لم يسقط الدين كما زعموا ؛ بل إن صحيحه من أكبر أدلة الإيمان ؛ ولهذا عاد كثير من الناس إلى الدين بعد أن تكسرت موجة الإلحاد أمام براهين الإيمان ، والعالم اليوم يشهد عودة للدين تدل على بطلان خيال التدرج من الحالة اللاهوتية إلى الحالة الواقعية التي يسقط فيها الدين من تلقاء ذاته ؛ وكل عاقل يعلم أن العقل البشري مهما أوتي من علم يستحيل أن يصل إلى معرفة الأطوار التي سار فيها العقل البشري عبر التاريخ ، وأن مرد ذلك إلى الله وحده ؛ كما قال تعالى : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ الكهف: ٥١.

والفلسفة الوضعية وإن كان موقفها من الدين بهذا السوء إلا أنها تختلف عن المذهب المادي الذي ينكر عالم الغيب كله ؛ فترى أن عالم الغيب يستحيل التدليل على نفيه كما يستحيل التدليل على إثباته ! وقد اعتنق الفلسفة الوضعية كثير من المفكرين ؛ كجون ستيوارت مل ، وفريدريك هريسون ، وبرتراند رسل ، وغيرهم .

نقد العقلانية

نبه المؤلف إلى أن أصحاب المذهب العقلاني وقعوا في أخطاء كثيرة ؛ منها : –

١– تضخيم دور العقل ، وإهمال بقية مصادر المعرفة ؛ كالوحي والفطرة ؛ ولهذا أقحم العقلانيون التجريديون العقل في غير ميدانه ؛ كمحاولة تصور الذات الإلهية ، ووضع منهج كلي للحياة البشرية ؛ وقد تخبطوا في ذلك من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، حتى تحولت قضية الألوهية لقضية ذهنية لا تمس الوجدان ، ولا تؤثر في السلوك العملي ! وتحول منهج الحياة إلى أحلام طوباوية بعيدة عن واقع الحياة !ّ

٢- المبالغة في العلم التجريبي ؛ واعتباره الطريق الوحيد لليقين ! وهم بهذا يختلفون عن المسلمين الذي أنشئوا العلم التجريبي ؛ فقد أدركوا بداهة أنه ليس كل شيء يدخل المعمل للتجربة ، إنما الذي يصلح لذلك هو المادة والجسم ، ومن ثم لم يجعلوا المرجع الذي يرجعون إليه في إثبات وجود الله وصفاته هو التجربة الحسية إلا من جانب واحد هو رؤية آثار قدرة الله في الكون ، والاستدلال منها على وجود الرب وكماله ! وهذا هو المنهج الحق الذي فاء إليه أخيرا كثير من العلماء التجريبيين في العصر الحديث ؛ كما نراه في كتـــــاب (الله يتجلى في عصر العلم) .

٣- يختلف موقف الإسلام من العقل عن هؤلاء وأولئك اختلافا كبيرا ؛ فالتجريديون أغلقوا كل منافذ المعرفة إلا العقل ، ولكنهم تركوه طليقا يسرح حيث يشاء ، والتجريبيون أغلقوا كل منافذ العقل إلا التجربة والحس !! أما الإسلام فإنه يقدر العقل ولكنه لا يبالغ في تقدير قيمته كما تفعل العقلانية التجريدية ؛ بحيث يجعله المحكم في كل شيء ، والمرجع الأخير لكل شيء ؛ فهناك أمور لا يستطيع العقل أن يصل إليها فهذه تلقن له عن طريق الوحي ، ويكون دور العقل أن يتيقنها عن طريق النظر في أدلة صدق النبي ﷺ ، وهي مجال واسع للنظر العقلي ؛ فإذا آمن وجب عليه التسليم بما جاء به المصدر الحق الذي آمن بصدقه ؛ ولهذا فإن الإسلام لا يترك العقل يسرح حيث يشاء ؛ وإنما يمنعه من مجالات بعينها ، كالتفكير في كنه الذات الإلهية ، أو سر الله في القدر ؛ لأنها أمور فوق طاقة العقل ! ويمنحه مجالا واسعا للعمل في ميادين كثيرة ؛ كتدبر آيات الله في الكون ؛ للتعرف على قدرة الله وكماله ، أو لمعرفة سنن الله

في الكون ، وكالتدبر في حكم التشريع ؛ لمعرفة مقاصده ، وعلل أحكامه ، التي يمكن معها الاجتهاد لمعرفة أحكام النوازل . وهذه هي العقلانية الراشدة التي تعطي العقل مكانه اللائق به فلا تغالي في تقدير قيمته ولاهي تبخسه قدره ، وتحده بمعطيات التجربة ! فأين هي من العقلانية التجريدية الغابرة والعقلانية التجريبية التي يمارسها الغرب في القرن التاسع عشر والعشرين .

٤- من أعظم أخطاء العقلانية إهمال الوحي وهو المصدر اليقيني المعصوم للمعرفة ، وبخاصة فيما يتعلق بالغيب ؛ فالعقل إنما يعرف هذه الأمور معرفة إجمالية ؛ ولهذا تخبط الفلاسفة فيما بينهم في قضية الألوهية بالذات وتعارضت أقوالهم مما حول الفلسفة إلى أداة تشتيت وإضلال لا أداة هداية وإرشاد !!

٥- ومن أعظم أخطائها إسقاط قضية الإيمان بكاملها أو إهمالها ؛ بحجة أنها غير معقولة أو غير محسوسة ! وهذا يفسر لنا يفسر لنا سر دعم اليهود للمذهب العقلاني ؛ كما أقر بذلك سارتر في كتابه (تأملات في المشكلة اليهودية) . مع أن العقل لا يملك دليلا واحدا على إنكار وجود الله تعالى ، كما أقر بذلك أصحاب الفلسفة الوضعية ، بل إن العقل من أعظم أدلة الإيمان وإن جهل ذلك أوتجاهله بعض من تصدى لإلحاد العقلانيين من الفلاسفة والمفكرين ؛ ككانت ، وجان جاك روسو !!

٦- ينبغي أن يفهم أن العقلانية الأوربية كانت ردة فعل حادة للحجر الكنسي على العقول في العصر الوسيط ، ومن هنا يتضح الخطأ الفادح لأولئك الخاطئين أو المخطئين الذين يريدون استنساخ التجربة الأوربية لتطبيقها في المجتمعات الإسلامية ؛ فإن الإسلام يختلف عن الدين الكنسي تماما ؛ فهو يحظ على العلم ،

ويعلي شأنه وشأن أهله ، وفي ظله ولد المنهج العلمي التجريبي الذي أخذته أوربا عن المسلمين ! يقول بريفولت في كتاب (بناء الإنسانية) : (أساليب البحث في دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني . أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي) . نقلا عن الكتاب المقرر صفحة (٥١٥) . ويقول : (على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة وفي المصدر القوي لازدهاره أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي) . المرجع السابق (٥١٦).

ظاهرة الإلحاد

رأينا أن العقلانية أدت بكثير من أهلها إلى الإلحاد ، وكذلك الشيوعية ؛ فقد اعتبرته من صميم المادية الجدلية ؛ ولهذا كانت تفرض الإلحاد فرضا في مناهج التعليم ووسائل الإعلام ، في حين أن الغرب وإن كان لايفرضه على الناس بتلك الصورة إلا أنه يشجعه بكل وسائل التشجيع ؛ وهذا يفسر سبب انتشار الإلحاد في العصر الحديث بشكل غير مسبوق في التاريخ !! ولهذا أفرده المؤلف بمبحث خاص آخر الكتاب ؛ بين فيه أسباب هذه الظاهرة ، وناقش الملاحدة من وجوه كثيرة نقتبس منها النقاط التالية :-

١- فطرية الإيمان بوجود الله تعالى ؛ فمعرفة الرب وعبادته أعظم حقيقة في فطرة كل إنسان ؛ وكل من سلمت فطرته من الاجتيال والتغيير فإنه سيذعن لا محالة لما في فطرته من الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم: ٣٠ ، وقال ﷺ : (مامن مولود إلا يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ، رواه البخاري ؛ وأكبر دليل على هذه الفطرة حال الإنسان عند الضرورة ؛ فإنه يتجه إلى الله وحده لايلتفت يمنة ولايسرة ؛ قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل: ٦٢ ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٦٥ .

٢- دلالة الكون على وجود الله وكماله ؛ فالكون بضخامته الهائلة ، ودقته المذهلة، وتناسقه وتوازنه ، يسترعي الانتباه ، ويروع الحس ، حتى يهتدي العقل إلى الخالق ؛ إذ هذا الخلق العجيب يستحيل أن يكون بلا خالق ؛ فالأثر لابد له من مؤثر ، والمفعول لابد له من فاعل ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ

﴿ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ البقرة: ١٦٤ ، وقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأعراف: ٥٤ ؛ يقول المؤلف : (التناسق في بنية الكون ، وخاصة التوازن الكائن في تلك المجموعة الشمسية التي منها أرضنا بحيث لو اختل عنصر واحد منها لما أمكنت الحياة ؛ فلو اقتربت الأرض من الشمس احترقت الكائنات الحية ، ولو ابتعدت هلكت من الصقيع ، ولو اقترب القمر من الأرض لارتفع المد حتى يغرق الارض ، ولو زاد الاكسجين لاشتعلت الكائنات ، ولو قل لم تجد كفايتها للحياة ، كيف يحدث ذلك كله من غير خالق مدبر حكيم ؟!) الكتاب المقرر ص (٦١٢) .

ومن أوجه دلالة الكون على الخالق وكماله دلالة التنوع ؛ إذ لو كان الخلق من فعل الطبيعة كما يزعمون لتشابه الخلق عند تشابهت الظروف ؛ قال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ الرعد: ٤ .

٣- دلالة الإنسان على وجود الخالق وكماله ؛ فالإنسان أشد المخلوقات إعجازا في خلقه ، وخصائصه ، وتعدد صوره وأشكاله ، حتى لايكاد أن يتماثل إثنان ويصل الاختلاف بين بصمات الاصابع الى حد تصبح معه من وسائل التعرف ؛ لأنها لاتتكرر في فردين من البشر ، وهذا كله برهان على الخالق ؛ إذ يستحيل أن يكون هذا الخلق المحكم بلا خالق ؛ قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الطور: ٣٥ ، وقال : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢٠ – ٢١ . ولاتنحصر دلالة الإنسان على خالقه فيما ذكر ، بل إنه يدل على خالقه من جهات أخرى ؛ كالشعور الدائم بالعجز ؛ فمهما أوتي الإنسان من السيطرة على

بعض جوانب الوجود فقدرته محدودة ، وعمره محدود ، ومتعته في عمره المحدود محدودة ، ويظل الشعور بالعجز يلازمه كلما شعر بالقدرة على شيء حتى يصل به شعوره إلى الخالق الذي لايعجزه شيء في السموات ولافي الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ فاطر: ١٥ .

٤- أن التقدم العلمي كان أوائل عصر النهضة من أكبر أسباب الإلحاد ؛ فقد فتن كثيرون بالكشوف العلمية ، حتى قال جوليان هكسلي وغيره : إن الخضوع لله كان بسبب عجز الإنسان وجهله ، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يتخلص من هذا الوهم ! وقد لقي هذا الإلحاد قبولا آنذاك بسبب النفور الحاد من الدين الكنسي ، والترويج لهذا الحنث العظيم من قبل اليهود ! لكن تبين للعلماء بعد أن خطا العلم خطوات إلى الأمام أن الحياة في غاية من التعقيد بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكها ، وأن العلم كلما تقدم كلما كشف عن جهل الإنسان ، وأن العلم ذاته في تقلب مستمر ، بحيث أن ماكان يعتقد حقيقة أصبح مجرد فرض !! بل إن العلماء الذين تربوا في الإلحاد العلمي ألجأهم العلم ذاته إلى الإيمان بوجود الله ! كمانرى نماذج من ذلك في كتاب العلم يدعو إلى الإيمان ، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم ! وقد ذكر المؤلف مقتطفات يسيرة منها ص (٦٣٩- ٦٤٢) ؛ والأمر اليوم أكبر مما ذكره المؤلف بكثير ؛ فقد أصبح إذعان العلماء لبراهين الإيمان ظاهرة عالمية ؛ تعنى بها مراكز متخصصة ، وكتب مفردة ؛ من أهمها كتب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ؛ قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت: ٥٣ .

القوميـــــة و الوطنيـــة

تمهيـــد:

الوطنية معناها أن يشعر أبناء الوطن الواحد بالولاء له أيا كانت أصولهم وأجناسهم ؛ أي أن الولاء للأرض بصرف النظر عن الدين أو القوم أو اللغة أو الجنس .

والقومية معناها أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينبغي أن يكون ولاؤهم واحدا وإن تفرقت أوطانهم .

نشأة القومية

يمكن أن نجمل أهم ماذكره المؤلف في النقاط التالية :-

١- كانت أوربا وحدة سياسية في ظل الإمبراطورية الرومانية ، وحين بدأ هذا التجمع يتخلخل دخل الإمبراطور قسطنطين في النصرانية ، وفرضها على أوربا فأنشأت لونا من التجمع الشعوري ، وتأثيرا ملموسا في وحدة الإمبراطورية ، وإن كان لم يصل أويقترب من التجمع الفريد الذي أحدثه الإسلام ؛ لأن العقيدة النصرانية كانت محرفة ليس لها تأثير العقيدة الصحيحة ، وكان الخلاف بين النصارى في أصل العقيدة ، ولغة الكتاب المقدس لايعرفها إلا المثقفون ورجال الدين دون عامة شعوب الإمبراطورية .

٢- استمرت وحدة أوربا فترة القرون الوسطى ، إلى أن تخلخلت نتيجة حماقات الكنيسة ، وظهور حركة الإصلاح الديني ، التي دعمها الملوك الراغبين في الانفصال عن الإمبراطورية ، واليهود الناقمين على اضطهاد النصارى إلى أن تصدعت وحدة الإمبراطورية وانقسمت أوربا إلى إمارات مختلفة ، وكان هذا الانفصال بداية ظهور القوميات في أوربا ؛ يقول الندوي : (قضت حركة مارتن لوثر التي تدعى حركة

إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية ، وانقسمت هذه القارة إلى إمارات شعبية مختلفة ، وأصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرا على العالم) ، وقال : (الدين السماوي مهما تحرف وتغير لا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ؛ فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين ، ولما قام لوثر بحركة الإصلاح الديني ، وانهزمت الكنيسة في عاقبة الأمر استقلت الأمم ، وأصبحت لاتربطها رابطة ، ولم تزل النصرانية تضمحل في أوربا وتقوى العصبية القومية والوطنية ؛ لأن الدين والقومية ككفتي ميزان ؛ كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى) . مختصرا عن الكتاب المقرر ص (٥٥٩ ، ٥٦٤) .

آثار القومية

كان لظهور القوميات في أوربا آثار مدمرة على أوربا والعالم ؛ فقد سعت كل قومية للتوسع الإقليمي على حساب القوميات الأخرى ، فنشب الصراع بين القوميات الناشئة ، وغذى وحشية الصراع وحدته فلسفة البقاء للأصلح ، والثورة الصناعية التي عمقت التنافس بين القوميات ، وقد ذكر المؤلف نماذج من صراع القوميات في أوربا وخارجها ؛ فمن ذلك :-

١- الحروب الإيطالية ؛ وهي حروب متقطعة نشبت بين فرنسا وأسبانيا ، واستطالت لخمسة وستين عاما ، وكان هدفها التوسع الإقليمي بالاستيلاء على ممتلكات جديدة في شبه الجزيرة الإيطالية ؛ ثم التفوق القومي في القارة الأوربية .

٢- حروب نابليون الشهيرة التي اجتاحت أوربا منذ أن ظهرت فيها حمى القومية !

٣- الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) ؛ التي راح ضحيتها عشرة ملايين من الشباب غير المصابين ، واستخدمت فيها أبشع وسائل الإجرام دون تحرج ؛ لأن الغاية تبرر الوسيلة ، والمصلحة القومية فوق كل اعتبار ! وكان هدف هذه الحرب

القضاء على القومية الألمانية وإسقاط الخلافة العثمانية !

٤- الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) ؛ وكانت نتيجة القهر العنيف الذي وقع على القومية الألمانية من القومية البريطانية والقومية الفرنسية ! وقد قتل في هذه الحرب أربعون مليونا من الشباب ، غير المدن التي دمرت ، والمدنيين الذين قتلوا في الغـــــارات الجوية ، وغير قنبلتي هيروشيما ونجازاكي اللتين قضتا على الوجود الحي كله في مساحة واسعة من الأرض !!

٥- الحرب الباردة ؛ فبعد الحرب العالمية الثانية برز المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي ، واستمر النزاع الحاد بينهما ، والخصام على توزيع مناطق النفوذ في العالم إلى أن سقط الاتحاد السوفيتي قبل أكثر من عشرين عاما ! وهو في حقيقته صراع بين القوميتين الروسية والأمريكية وإن ظهر بعنوان مختلف كما يقول المؤلف .

القومية والاستعمار

كان الاستعمار الأوربي في منشئة دفعة صليبية بحته ؛ فلما سقطت الأندلس في يد المسيحيين قامت محاكم التفتيش بجهد ضخم للقضاء على بقايا الإسلام في الأندلس ، ثم إن البابا شجع النصارى على متابعة المسلمين خارج الأندلس ، ولكن وجود الدولة العثمانية في الشرق لم يكن يتيح للصليبين الاتجاه نحو بيت المقدس من الشرق فحاولت الدوران حول العالم الإسلامي من الغرب ؛ فقام فاسكو دي جاما برحلته الشهيرة التي كشف فيها طريق رأس الرجاء الصالح ، وحين وصل إلى جزر الهند الشرقية قال : الآن طوقنا عنق الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل ليموت !! ثم تتابعت الرحلات العلمية التي مهدت للاستعمار الصليبي ! ولما برزت القوميات في أوربا ظلت متلبسة بالروح الصليبية تجاه المسلمين ؛ فأصبحت تتنافس على استعمار العالم الإسلامي ومحاولة تنصير أهله ؛ عن طريق حملات التبشير التي كانت تصاحب الاستعمار الصليبي دائما ! وحين

قامت الثورة الصناعية اتسم الاستعمار بالصبغة الاقتصادية لأنه كان بحثا عن الموارد الرخيصة من جهة والأسواق المضمونه من جهة لتوزيع فائض الانتاج ، وشمل الاستعمار كل أرض مستضعفة إسلامية أو غير إسلامية ؛ فإن كانت الأرض المستعمرة غير إسلامية اكتفى الاستعمار بنهب الخيرات وتوزيع فائض الإنتاج ! وإن كانت إسلامية فالعناية الأولى موجهة لمحو الإسلام عن طريق التبشير ووسائل الغزو الفكري المختلفة ، ثم يأتي بعد ذلك نهب الخيرات وتوزيع فائض الانتاج ! وهكذا ارتبطت القوميات في أوربا بالاستعمار بكل سفالاته وبكل بشاعاته ! أ.ه ملخصا لكلام المؤلف ص (٥٦٧- ٥٧٣) .

تصدير القومية والوطنية

اتضح للصليبيين أثناء الحروب الصليبية وبعدها أن الغزو العسكري لايمكن أن يفلح وحده في القضاء على المسلمين إلا إذا صاحب ذلك غزو فكري يقتلع العقيدة من نفوسهم ؛ كما أصى بذلك لويس التاسع الذى اهتدى وهو في أسر المسلمين لسر قوتهم ! وقد التزم الصليبيون بهذه الوصية ؛ فمهدوا للاستعمار بالغزو الفكري الذي كان من وسائله دعوى القومية والوطنية ! وبالفعل بثت بذور الوطنية في العالم الإسلامي ثم القومية ، وكان الهدف من ذلك تحقيق عدة أمور ؛ منها : -

١- تحويل الجهاد ضد الاستعمار الصليبي إلى حركات وطنية لا تنظر إلى المستعمر على أنه صليبي يستهدف محو الإسلام ، وإنما مجرد مستعمر يمكن التفاهم معه !

٢- تيسير عملية التغريب ؛ فالجهاد يوصد الباب بين المجاهد وعدوه ؛ فلا يأخذ شيئا من عقائده ولا أنماط سلوكه ، وفي الحركة الوطنية يكون الحاجز رقيقا ؛ يسمح بالتغريب ، والأخذ عن المستعمر ، والتأثر بفكره وسلوكه ! وهو ماتم بالفعل ! ولكن للأسف لم يأخذ المستغربون من العدو جلده وانضباطه في عمله ، وإنما أخذوا انحطاطه

وفساد أخلاقه ؛ يقول المؤلف : (لم يتعلم المستغربون من الغربيين قط قدرتهم الفائقة على التنظيم ، ولا جلدهم الشديد على العمل ، ولا التزامهم الشديد بالانضباط في كل شيء ، وإنما تعلموا اللهو والعبث والمجون والرطانة بلغة الأعاجم ، وتعلموا أسوأ من ذلك كله التباهي بالانسلاخ من الدين والعرض والاخلاق الدينية) . الكتاب المقرر ص (٥٨٠) .

٣- القضاء على الخلافة الإسلامية ؛ فبعد مؤتمر بال الشهير ذهب هرتزل إلى السلطان عبد الحميد ليعرض عليه كل المغريات في مقابل منح اليهود وطنا قوميا لهم في فلسطين ، ولكن السلطان رفض ذلك كله ؛ فدبر اليهود لخلع السلطان وإسقاط الخلافة، وكانت الوسيلة لذلك هي القومية ! فنظم يهود الدونما حزب الاتحاد والترقي الذي نادى بالقومية الطورانية ؛ وهي قومية الأتراك في جاهليتهم ، ونادوا بضرورة تتريك الدولة ؛ ليشعر العرب بالظلم في ظل الحكم التركي ؛ وتتأجج فيهم روح القومية العربية ، حتى إذا أشعلت نارها كانوا من أنصارها ، وكان أول من أشعل نار القومية العربية هم نصارى لبنان وسوريا ثم انضم إليهم المستغفلون من المسلمين ، وكان السلطان عبدالحميد يحارب الجماعات التي تنادي بالقومية الطورانية أو العربية ، إلا أن أحوال الخلافة كانت أضعف من أن تصمد للكيد ؛ فمضى في سبيله حتى بلغ غايته ، وسقطت الخلافة ، وقسمت تركتها على المستعمرين ، ثم قامت دولة يهود في فلسطين برعاية الصليبيين !

٤- إيجاد بديل للراية الإسلامية التي تجمع المسلمين من كل مكان ضد اليهود والنصارى ، وكان البديل هو القومية العربية ، التي حرص الصليبيون على أن تكون هي آصرة التجمع عوضا عن الإسلام !!

نقد القومية والوطنية

ذكر المؤلف في نقد القومية والوطنية عدة أمور نقتبس منها مايلي :-

١- القومية والوطنية في حد ذاتها نزعة غير إنسانية لايتوقع أن ينشأ عنها إلا الشر ؛ فهي تجعل المصالح القومية والوطنية هي الاصل المعترف به على حساب القيم والمبادى وكل المعاني الانسانية وتحد أفق الإنسان بقومه أو وطنه ؛ وبدلا من أن تكون قيمه معان رفيعه تليق بالإنسان إذ قيمه مصالح مادية يتعارك عليها الحيوان !

٢- أنها تقيم تجمع البشر على الأمور التي لاخيار فيها للإنسان وتنبذ كل الأمور التي يكون فيها الخيار للإنسان ؛ كالإيمان والقيم التي تنشأ عنه ؛ كالحب في الله والبغض في الله ؛ أي الحب لمن هو جدير بالحب ، ولو كان من غير قومك أو وطنك ، والبغض لمن هو جدير بالبغض ولو كان من قومك أو وطنك ؛ قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ المجادلة: ٢٢ .

٣- أن القومية والوطنية تعارض الإسلام الذي ينكر أن تكون صلة التجمع بين البشر شيئا غير الإسلام ؛ لا الدم ولا اللغة ولا الأرض ولا المصالح الأرضية ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ التوبة: ٢٤ ؛ فجعل الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والمال والتجارة والأرض وهي مقومات القومية في كفة وفي الكفة الأخرى حب الله ورسوله ، والجهاد في سبيله ؛ والمفاصلة الكاملة بين هذه وتلك ! وليس معنى ذلك أن الإسلام يحرم تلك الروابط ، وإنما يجيزها كلها حين تقع تحت

رابطة العقيدة ؛ قال تعالى : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ الأنفال: ٧٥ ، أي حين يكونون كلهم مؤمنين ، فإن اختلفت العقيدة فلا ولاء حتى مع أقرب الأقربين ؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هود: ٤٥ – ٤٦ ؛ فأين هذا من القومية والوطنية التي تقول في صراحة : إن المشرك الذي يشاركك في قوميتك أو وطنك أقرب إليك من المسلم الذي ينتمي إلى وطن أوقومية أخرى !! وأين هي من المجتع الإسلامي في المدينة الذي كان بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، في القمة من ذلك المجتمع ، مع السادة من قريش ، وكان عمر يقول (أبوبكر سيدنا وأعتق سيدنا) ؛ أي بلال ، مع أنه من ذؤابة قريش ؛ وهي قمة لا تصل إليها البشرية إلا حين تكون الآصرة هي الإيمان لا الأقوام ولا الأوطان !

دعوى الإنسانية

تظهر بين الحين والآخر دعوى الإنسانية ، أو الأخوة الإنسانية ، وتلقى قبولا عند كثير من الناس ، وبخاصة عند اشتداد حمى القوميات والعصبيات ! ؛ وهي تعني عدم التفريق بين الناس على أساس الدين أو العرق أو الوطن !

وقد نبه المؤلف إلى أمور هامة تتعلق بهذه الدعوى البراقة ؛ منها :-

١- أن المؤسسات العالمية التي تروج لدعوى الإنسانية لا تلتزم بمضمونها في القضايا التي تخص المسلمين ؛ فالمسلمون في الحبشة والفلبين والهند وفلسطين وأفغانستان وغيرها يتعرضون لأبشع أنواع الظلم ، ثم لايرتفع صوت في هذه المؤسسات يستنكر العدوان على المسلمين !! وإنما يشهر سلاح الانسانية في وجه المسلمين فقط حين يطالبون بحقهم المشروع !

٢- أن الماسونية العالمية تستغل شعار الإنسانية ، وتبثه بين الأممين دون اليهود ؛ ليواجهوا الحياة بلا دين ؛ فإذا أفعلوا اجتالتهم الشياطين ، وأمكن استحمارهم ؛ كما أوصى بذلك التلمود (الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختـــار) . وقد نبهنا الله لهذه النظرة الآثمة في قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ آل عمران: ٧٥ .

٣- أن المقصود الأعظم بدعوى الإنسانيـــــــــة هم المسلمون بالذات ؛ لتحقيق هدفين : -

أ- إزالة استعلاء المسلم بإيمانه حتى يتميع تمسكه بدينه ويمكن تغريبه ؛ يقول فون جرونيباوم : (إن الحاجز الذي يحجز المسلم عن التغريب هو استعلاؤه بإيمانه ولابد من تحطيم ذلك الحاجز لكي تتم عملية التغريب !) .

ب- إزالة روح الجهاد من قلب المسلم ؛ ليطمئن أعداؤه بأنه لن يسعى يوما من الدهر لاسترداد خيرات بلاده المنهوبة ، والتي هي أساس الحياة الناعمة التي يعيشها الغرب ؛ ولهذا لا يخشون شيئا خشية روح الجهاد ؛ يقول روبرت بين : (إن النار التي أشعلها محمد ماتزال تشتعل بقوة ، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء) . ويقول أحد المبشرين : (إن أوربا كانت تفزع من الرجل المريض ؛ لأن وراءه ثلاثمائة مليون من البشر مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده) .

٤- أن الإسلام يحترم المعاني الإنسانية ، فلا يكره أحدا على الدخول في الإسلام ، ولايأذن بانتهاك حقوق الإنسان حيث كان إلا إذا وقف في وجه الدعوة الإسلامية ، وحال دون بلوغها لعبـــــــاد الله في أرض اللـــــــــــــــه ؛ قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الممتحنة: ٨ - ٩

تم المقرر والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحه
المقدمة	١
الدين والكنيسه	٢
تحريف الدين النصراني	٤
طغيان الكنيسة ورجال الدين	٥
فساد رجال الدين	٧
نظام الرَّهبنة وفضائح الأديرة	٨
صكوك الغفران ومحاكم التفتيش	٩
مساندة الكنيسة لنظام الإقطاع	١٠
المعالم العامة للمذاهب المعاصرة	١١
دور اليهود في إفساد أوروبا	١٢
نظرية دارون	١٣
نظرية ماركس	١٤
المذهب الحسي والوضعي	١٥-١٦

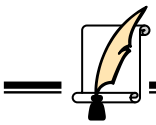

الموضوع	رقم الصفحه
نظرية فرويد	١٨
نظرية دوركايم	٢٠
العلمانية	٢١-٣٠
معنى العلمانية	٢١
الدين الكنسي وطغيان رجاله	٢٢
مجالات العلمانية	٢٤
المدرسة الواقعية	٢٦
السريالية والوجودية	٢٧
الحداثة الأدبية	٢٧
البنيوية والتفكيكية	٢٨
العلمانية والإسلام	٢٩
الديمقراطية	٣٠-٤١
معنى الديمقراطية	٣٠
معالم الديمقراطية	٣٠
الليبرالية والديمقراطية	٣٢

الموضوع رقم الصفحه

واقع الديمقراطية الليبرالية ٣٤

الديمقراطية والإسلام ٣٦

الشيوعية ٤١-٥١

تمهيد ٤١

منابع فكر ماركس ٤٢

المادية الجدلية (الديالكتيك) ٤٤

المادية التاريخية ٤٦

تقويم النظرية المادية ٤٦

المذهب الشيوعي الإقتصادي ٤٨

العقلانية ٥٢-٦٧

تمهيد ٥٢

العقلانية التجريدية ٥٢

المذهب الذرائعي ٥٧

العقلانية التجريبية ٥٩

الفلسفة الوضعية ٦١

الموضوع رقم الصفحه

نقد العقلانية ٦٣

ظاهرة الإلحاد ٦٧-٧٠

القومية والوطنية ٧٠-٧٦

تمهيد ٧٠

نشأة القومية ٧٠

آثار القومية ٧١

القومية والاستعمار ٧٢

تصدير القومية والوطنية ٧٣

نقد القومية والوطنية ٧٥

دعوى الإنسانية ٧٦-٧٩

فهرس الموضوعات ٧٩-٨٢